أمواتٌ يحكموننا!

رواية



شيمـــاء أبجـاو

أمـــواتٌ يحـكمـونـنـا!

رواية



الكتاب: **أمــواتٌ يحكموننا!**
الكاتبة: شيمــاء أبجــاو
الصنف: رواية
رقم الإيداع القانوني: 2020MO4254
الترقيم الدولي: (ردمد) ISBN: 978-9954-648-68-1
الطبعة الأولى: 2020
الناشر:



للطباعة والنشر

7، رقم 1، زنقة الكوفة، شارع مولاي يوسف، الرباط 10000 - المغرب
تلفونات:
مكتب: 212537702120+
جوال: 212673420256+
البريد الإلكتروني:
daralwatan2018@gmail.com
الإخراج الداخلي والغلاف: خديجة آيت سعيد
السحب: مطبعة لامبريمور - سلا

لا أحبُّ الصراخ بحنجرتي،
فصرختُ بأصابعي وصرتُ كاتبة!

كوليت خوري

ألا طالمـا حمّلـتُ قلبـي طالما ** تكاليـف من إعظام مـا ليس معظما
فقـد حطّهـا الإلـه عنـي بمحنـة ** أراني بها رشـدي ومـا زال منعما

ابن الرومي

الشمسُ حارّةٌ شديدة، والجِباه تتصبّبُ عرقا في يوم صيفي ثقيل. يمرّ طارق بمحاذاة سور الجامعة التي أنفق من عمره سنينَ عددا تحت مِظلّتها بدعوى التعلّم استعدادا للمستقبل، والحصول على الشهادة المُشتهاة، غير أنه لم يعلم أن شهادته تلك تتحدثُ لغة أخرى غيرَ لغة سوق الشغل، والحياة الفعلية!

اليوم؛ تلك الأبواب تنكّرت له، لقد قذفت به بعدما سلّمته الشهادة الموعودة، وظلّ يتأرجح من مرتفعات جبال الأمل، يهوِي ويهوي... ومع كلّ يوم يمرّ يقترب من سفح الجبل ليرتطم بعنفٍ بأرض الواقع الصلبة!

استيقظ طارق من سهومه على صوت يعرفهُ جيدا، إنه مجيد رفيق أيام الجامعة، يتذكّره باقتباسه الأثير: «أينما ذهب الحشد، اذهب في الاتجاه المعاكس، إنّهم دوما على خطأ!» والذي يُتبعه بحركةٍ مُميزة بإصبعين إثنين، وهمستِه الساخرة المعهودة: «أديوس أميغو» إلى اللقاء يا صديقي! كان يقولها كلما فارق طارق على باب المدّرج، إلى أن اختفى بشكل كامل لتظهر أخبار تقول إنه هاجر إلى الديار الأوروبية. ها هو اليوم يعود إلى أرض الوطن، بسيارة رياضية جميلة، بينما ما زال

طارق يحمل ملفا تتكدس فيه نسخُ سيرته الذاتية وشهاداته التي لم تشفع له وهو يطوف على أبواب الشركات والمصانع تحت أشعة الشمس الحارقة!

عرض مجيد على طارق أن يُوصِله إلى وِجهته، لكنّه رفض بامتعاض، فهو يُحمّله وزر إقناع أخيه عليّ بفكرة الهجرة اللعينة التي أخذت روحه.

***

كأي شاب على وجه البسيطة، كان طارق يطمح إلى تحقيق الذات والاستقلالية، وحريةٍ تتجاوز الجدرانَ الأربع لغرفته الضيقة. لم يكن يريد إلا عيشا كريما في أحضان الوطن، بدل أن يلقَى مصيرَ أخيه عليّ الذي دفع حياته ثمنا لمقعد بارد على قارب من قوارب الموت!

آه لو عرف عليّ أنّ موته كان رصاصةً مباشرة في قلب طارق، لما فكّر أبدا في ركوب ذلك القارب اللعين! بعد وفاته صار طارق أكثر انطواءً على الذات، وما إن تمكن من النهوض مجددا، والخروج من حِداده الطويل، حتى مزّقته رصاصة جديدة؛ لقد تُوفيت والدته!

كان ذلك من بين أكثر الأيام سوء في تاريخ طارق، يومٌ من تلك الأيام التي يبدو العالم كله جحيما مُستعرا ودخانا، حيث لا يرى حوله إلا الدمار! موت والدته كان دمارا شاملا هدّم كل عماد يشدّ قلاع روحه! لقد انهار وهو يبكي بطريقة هستيرية فوق جثة أمه، صارخا بكل ما يملك من قوةٍ بعنفٍ واحتجاج: «لماذا يا ربّي، لماذاااا...»

أما والده السيد مصطفى، فقد بذل الكثير من الجهد ليستوعب النزيف الذي أصاب جسد عائلته!لطالما كان رجلا قويا ذا كلمة مسموعة، مثقفا وحكيما، لكنّ الألم هزمه، والموت طرحه أرضا بالضربة القاضية! لم يملك أن يتظاهر بالقوة هذه المرّة، لقد خسر ابنه ثم زوجته، فنأى بنفسه كأسد جريح، فإما الشفاء أو الموت!

وانتهت مراسم الدفن، وعاد السيد مصطفى وابنه طارق إلى البيت يجران أقداما ثقُلت حتى عجزت عن حمل جسد واهن خائر القوى!

دخلا المنزل في صمت دون أن يُحدّث أحدهما الآخر،واتجه كلٌ منهما إلى غرفته مُباشرةً، والمنزل يغرق في صمت كالقبور.

***

في الجزء العُلوي من المنزل توجد غرفة فسيحة تُشرف على الواجهة الشرقية، وتتميز بقداسةٍ ورهبة احتفظ بهما طارق اتجاهها منذ الصغر، إنها غرفة نوم والده السيد مصطفى، الذي جعل منها محرابه بعد أن اختطف الموت منه ابنه وشريكة عمره! وبقي طارق وحيدا يرتق جراحه بيديه،مُغلقا أبواب عالمه عليه، فالسيد مصطفى لا يُغادر غرفته إلا للضرورة، ولا يدخل في حوار مع طارق إلا نادرا.

غربة تحت سقف واحد، كلّ من طارق وأبيه يبكيان الفقيدين في عزلة وتكتّم، فما أشنع الفقد!

الحب ليس فقط اتحاد هوى، تفاهم، تلاؤم، اندماج عقلين..
بل هو أيضا ارتياح الفطرة إلى فطرة أخرى تأنس بها وتكتمل بوجودها.

مصطفى محمود

في عالمه الخاص، ووحدته المُمتدّة، تعوّد طارق أن يبدأ يومه كل صباح بتصفّح كتاب ما، يُسجل رؤوس الأقلام على مذكرته التي يحرص على وضعها قرب سريره.كان يشعر أن هذا يمنحه طاقة وتحفيزا ورؤية أوضح للوجود، بل يربطه بالعالم، بعدما ابتعد عن الأصدقاء والمعارف، ورَكَن للذّة الوحدة، أوَليست الكتب رسائل معرفة من شخص إلى آخر ؟!

لكن حتى في ظلمات الوحدة، وسُكونها الذي يُشبه صمت القبور، كانت نغماتٌ تتعالى بإصرار داخل صدره، تدقُّ بلحن الحياة؛ إنها نبضات قلبه! فذلك القلب الذي يضُخّ الدم في العروق صار يصرخ بحاجته إلى الدفء، إلى الحب! لقد أمضى وقتا طويلا وهو يحرص على أن يكون سيّد نفسه، وكلما راودته هذه النفس العنيدة عن الحب حاججها بقوّة، فأفحمها.

غير أن نظرياته كلها تبخّرت أمام جمال منال ابنة الجيران التي استطاعت أن تضرم النيران في قلبه الذي حاول كثيرا الاحتماء في حصون الوحدة وقلاعها.

وبعد عدّة لقاءات على مقهى بَحري لا يخلو من أجواء الرومانسية، وجمال البدايات، بادرت منال بالحديث عن

موضوع الارتباط، الشيء الذي أصاب طارق بصدمة وذهول، فهو لم يتوقع أن تُفكر الفتاة بموضوع الارتباط بهذه السرعة!

أما منال فلا تفهم إلا لغة التطبيق الواقعي، فمبادئها لا تعترف بالحب إلا بعد الزواج!

بعد لقائهما هذا اليوم، احتاج طارق جلسة تأمل طويلة لكي يحاور ذاته، ويضع كل المعطيات تحت مجهر عقله، حتى أنه فكرّ في الاستعانة بكتب قد تُفيده في فهم هذه الأنثى الغريبة عنه، فلا ملجأ له بعد فقد الأم والأخ وعزلة الأب إلا الكتاب! «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة» «كيف تفهم المرأة» عنوانين كثيرة تتراقص أمام عينيه، غير أن منال لم تمنحه ترف التفكير، فلمْ تمضِ إلا ساعات على لقائهما حتى بادرته برسالة نصية تقول فيها: «اتصل بي بعد نصف ساعة من الآن، سيكون الجميع نائما!»

وافق طارق على الفور، خال أن الأمر يتعلق باتصال عادي كالذي يكون بين المُحبين، لكنّه تفاجأ بمنال تُخيّره بين التقدُّم لخطبتها في أقرب وقت، أو الانسحاب من حياتها وإعطاء الفرصة لعريس آخر قد أخبرها والداها برغبته للتقدم لها!

لقد جعلت تلك المحادثة القصيرة طارقا في قمّة الارتباك، فتعاملُ منال مع الارتباط أثار دهشته، كأنّه بها في تربّصٍ لإيجاد الرجل الأصلح لدخول قفص الزوجية في أسرع وقت!

أدرك طارق أي نـوع من الأشخاص هي، غير أنه لم يستعجل الـردّ، وضرب لها موعدا مساء الغد في نفس المقهى التي احتضنت لقاءهما الأول.

***

وصلت منال إلى المقهى متأخرة عن الموعد بدقائق معدودة، كانت تبدو كالملاك في ملابسها المُحتشمة.

جلست بهدوء بعد أن تبادلا السلام، وللحظات طغى ذلك الصمت الثقيل الذي يُنبئ بأن الأمور ليست على ما يُرام،أخرج طارق مذكرة من جيبه، فتحها على صفحة بِكر وكتب عليها:

«إذا احترت بيني وبين غيري، فلا تخترني!» دفع الورقة بهدوء باتجاه منال التي كانت قد قرأت الجملة قبل أن تصل الورقة إلى يديها.

أشفق طارق على منال من الارتباك الذي ألجم لسانها، وما إن هبّ واقفا حتى أمسكت يده قائلة:

- ألا يحق لي أن أكمل ديني، وأستقر مثل كل الناس؟!

عَلَت ابتسامة ذات معنَى وجهه، وسحب يده بهدوء قائلا:

- دعيني أودّعك يا منال، فمنذ اليوم صرتِ غير مرئية بالنسبة لي!

***

القراءة والتعلم شيئان يستطيع أي إنسان أن يزاولهما بمحض رغبته، أما الفكر فلا، فالتفكير يجب أن يُقدح كما تُقدح النار في تيار من هواء.

آرثر شوبنهاور

عاند السيد مصطفى نفسه، سحب جسده المثقل بالسنين، أرسل صوته الذي ضعُفت أوتاره حزنا ووهنا، اتّكأ على باب غرفته مُناديا:

- طارق.. طارق!

أسرع طارقا مُلبيا:

- نعم يا والدي.

ناول السيد مصطفى ابنه مغلفا كُتب عليه: «وصيتي». فشعر طارق أن الدم توقّف في عروقه، لاشيء تحرّك فيه سوى عينيه اللتان اتسعتا دهشة. حاول استدراك الموقف، وجعله ضربا من الهزل، أراد أن يستدعي حسّ الدعابة التي لا يملكها... وبيأس كاد ينطق ألفاظا غبية لا يعنيها! لكن ملامح والده الجادة المُشفقة أجهضت مراوغته.

لم يجد طارق إلا أن يجثو على ركبتيه قرب فراش أبيه، ويمسك يده كما لم يفعل من قبل قائلا:

- أطال الله عمرك يا أبي. دعك من هذه الأشياء، ما يهمني هو أنت..

قاطعه السيد مصطفى قائلا:

- ومن قال إن وصيتي تتعلق بك؟!

نظر إليه طارق بوجل، نكّس رأسه في اتجاه المُغلف الذي يحمله بين يده.

- افتح يا طارق!

قال الأب آمرا، فأذعن طارق واستخرج ورقة بيضاء تحتضن جملة يتيمة: «وصيتي ألا أدفن!»

سرت صعقة كهربائية في جسده وهو يتفرس الورقة، لم يجد سؤالا يستوعب عدم استيعابه! تلعثم قائلا:

- أبي!

ابتسم السيد مصطفى وشيء من السخرية الأليمة تعلو مُحيّاه. أخذ سيجارة من العلبة التي لا تُفارقه! سحب نفسا عميقا، ثم نفث سحابة كثيفة قائلا:

- ما أجمل الدهشة أليس كذلك يا ابني؟!

تسارعت دقات قلب طارق، والتوتر أرداه صريعا في موقف تعدّى الدهشة إلى الخوف! تصاعدت نبرة صوته قائلا:

- أرجوك أبي..هلاّ شرحتي لي مُرادك؟ أشفق على حالي!

رد السيد مصطفى:

- أما الشفقة فهي ذُلّ مهما كان مصدرها، فإذا أردت إجابة فابذل مجهودا لنيلها! أما مضمون الوصية

فهو واضح، وتلك رغبتي ولستُ أضعها على طاولة النقاش.

أخرج السيد مصطفى كتابا من تحت مخدّته، ووضعه بين يدي طارق قائلا:

- دعني أضعك على بداية الطريق!

نظر طارق إلى الكتاب الذي فاجئه عنوانه: «مكّة في جغرافية القرآن» ل «دان جيبسون.»

***

يا الله، إما أن تمنحني نِعمة الجهل، أو أن تمنحني القوّة لأتحمّل المعرفة ! لا تجعلني ضعيفة وعارفة في الوقت نفسه

إليف شفق

الحيرة، لا رفيق لطارق غيرها، سرَت في جسده فأوهنته، وغَشَت عقله فأذهلته. غابت عنه الصور، وتلاشت الأصوات.. تعطّلت حواسه أمام رغبة والده الغريبة. تجاوز إشكال تطبيقها من عدمه، إلى التساؤل عن السبب الذي يجعل شخصا يطلب طلبا كهذا!

لم يتمالك طارق نفسه، خانه طوله الفارع ومادت به الأرض. إن هذا الرجل يدفعه للجنون! ألم يكفِه ما أذاقه من علقم الغموض والوحشة بعد وفاة أمه، كان يُمنّي النفس بكونها حالة عابرة. كثيرا ما كان يختم جلسات المونولوج بقوله: «هذا الوقت سوف يمضي» لكن ها هو أبوه اليوم يصفعه بهذا الطلب الغريب، وهو أشدّ العارفين بعناده وتعنُّته.

اختار أن ينسحب من غرفة أبيه الذي يُجالس سيجارته غير عابئ بوجوده! كأن كلامه مقصلة لا صوت يعلو على صريرها!

في غرفته، تصفّح طارق الكتاب، عيناه تقفزان بين الأسطر بوجل، إنّه يُقدم نظرية لم يسمع بها من قبل! نظرية تنسف

كل ما يعرفه، بل كل ما درسه في المقررات الأكاديمية، وحتى ما يُقدّم في الإعلام!

وهذه النظرية تقول بأن الكعبة التي يعرفها جميع المسلمين اليوم، ليست هي الكعبة الحقيقية التي تحدث عنها الإسلام!

يا له من عصف ونسف تعرّض له طارق وهو يتتبع حُجج المؤلف الذي استدل بدلائل أركيولوجية وتاريخية عن اتجاه القبلة في أقدم المساجد، والتي تتجه جميعها على اختلافها مواقعها الجغرافية إلى مدينة البتراء في الأردن وليس إلى مكة التي نعرفها اليوم!

***

معظم البشر أعينهم مُغلقة بغبار الخيبة، إلى حدّ يمنعهم من رؤية الحقيقة.

إليزابيت جيلبرت

الشعور بالعجز يسيطر على طارق، رغم محاولاته المُستميتة في التخلص منه، أو حتى تجاهله! يا له من شعور مقيت!

اتجه نحو الطابق العلوي حيث يستكين أبوه إلى راحة العزلة بين كتبه. طرق الباب بهدوء، فجاءه صوت أبيه الهادئ:

- تفضل!

بقي طارق صامتا كأن جلالَ حضرةِ أبيه ألجمت لسانه، فبادر السيد مصطفى قائلا:

- هل تشاهد أشرطة الفيديو على النت؟
- نعم، من حين لآخر.
- ابحث اذن عن فيديو بعنوان «البيضة» «the Egg»
- بيضة!؟
- نعم بيضة! يمكنك أن تذهب لغرفتك الآن، ليلة سعيد ة.
- ليلة سعيدة والدي.

قفز طارق من غرفة أبيه كأنه يفرُّ من حريق، كان يشعر بالضعف أمامه، بالضآلة وقِلّةِ الحِيلة. كاد يدخل في نوبته

التفكيرية العميقة التي تعقب كلّ لقاء له مع أبيه، لكن ذلك الاسم الذي التقطته أذناه رنّ بقوة داخلهما باستفزاز: «البيضة!»

لم يتمالك طارق نفسه أمام إغراء هذا العنوان، وتساءل بصوت مسموع: «ما نوع هذا الفيديو يا ترى؟ يا له من رجل غريب!»

أغلق باب غرفته، رقن الاسم على محرك البحث: «البيضة» ظهر فيديو يتميز عن غيره بعدم احتوائه على أي بيض، بينما البقية تتضمن صورا وعناوين مختلفة تتضمن بيضا حقيقيا أو مصورا. لا شك أنه الفيديو المنشود. ضغط عليه فبدأ العرض:

«رجل متشرد يفترش الأرض، يرتعد بردا تحت الثلج المنهمر، المارّة يتجاهلونه.. ولا زال يرتعش حتى توقف قلبه ومات!

يظهر نفس الرجل في مكان يبدو كأنه فوق السحاب، ينتبه لسيدة بجانبه تحتسي مشروبا ما بهدوء، يجفل... تحاول أن تهدئه، وتفهمه أن الأمر بسيط: لقد مات!

يذهل الرجل وينهمر بوابل من الأسئلة على المرأة التي تجيبه عن أسئلته بكل هدوء. وفي نهاية الحوار تطلب منه أن يستعد لحياته التالية والتي سيكون فيها عبارة عن سيدة صينية! يستغرب، يستفسرها بدهشة إن كانت تقصد أنه سيُبعث مرة أخرى! تجيبه أن الأمر صحيح، وأنه قام بذلك ملايين وملايين المرات من قبل. يزيد استغرابه، فتوضح له أن جميع

الأشخاص الموجودين أو الذين وجدوا أو سيوجدون مستقبلا ما هم إلا هـو نفسـه!

يرتبك الرجل فيتساءل هل يعني هذا أنه هـو نفسه بعض الشخصيات العظيمة أو المجرمة التي مرّت في التاريخ، يسألها إن كان هو نفسه هتلر؟ فترد قائلة: أنت هتلر وكل الذين اتبعوه، بل وكل الذين قتلهم. ويستمرّ في ذكر بعض الشخصيات البارزة. ودائما يكون الجواب أنه هـو نفسـه!

ينتهي الحوار ويستعد الرجل للانتقال إلى حياته التالية: تظهر امرأة صينية توشك أن تعبر الشارع، فتلمح متشردا يرتجف بردا، فيتملكها شعور غريب، شعور يقول إنها رأت هذا الرجل من قبل! فلم تجد أمامها إلا أن تتوجه نحوه وتمنحه معطفها.

انتهى الفيديو ومعه بدأت دوامة الحيرة. لقد أجهز أبوه على طمأنينةٍ طالما ركن إليها واستراح. تبخّرت الوصيةُ وطلبُ أبيه الغريب، واشتبكت عليه الخيوط! تساءل والحيرة تنخر رأسه، لِم قد يُحيله أبوه على هذا الشريط بالذات؟ وما مغزى رسالته؟

شعر طارق بالتيه، بالغرابة! إنه باب لم يطرقه من قبل، ومنطقة لم تطأ قدماه أرضها! راودته أسئلة لم تجد طريقها لعقله من قبل؛ من أين أتى الإنسان وإلى أين يذهب؟ ما جدوى وجوده إذا كان الخالق في غنى عنه؟

طال عليه الأمد وضاق عليه الخناق، فلم يملك إلا أن يتوجه لغرفة أبيه ومِحرابه الذي لا يكاد يبرحه. جثم أمام السرير ونظر

إلى عينيه الموغلتين في الغموض، سواد حتى الزرقة، وزرقة حتى السواد. وكأنهما محيط شاسع مرعب، لا يملك طارق إلا أن يقف أمامه صاغرا متضرعا. همس في وجل:

- صرت أعلم يا والدي أن وصيتك ما هي إلا قدّاحة! والكتاب ما هو إلا تذكرة لدخول عالم الشك!

انفرج وجه السيد مصطفى عن ابتسامة لم يرَ لها طارق مثيلا من قبل. قال بهدوء:

- وهل توهّجت الشعلة؟

نكّس طارق رأسه وقال بكمد:

- ليتها لم تفعل، الجهل راحة!

ردّ السيد مصطفى قائلا:

- إنه ثمن الوعي!

كان الانهزام يسيطر على طارق، كان يشعر بخليط من المشاعر المتصارعةِ ضدّ جسده الواهن؛ خيبةٌ وورطةٌ، وعجز وحزن، ورغبة مشتعلة بمعرفة الحقيقة. خاطب والده قائلا:

- إني أشعر أني خرجتُ من جنات الراحة والطمأنينة إلى صحاري التيه والمشقّة! صرتُ أرى الناس غيرَ الناس. والحياة غيرَ الحياة..

- إنك على الطريق إذن.

- اصدقني القول أبي، هل وجدت لهذا الطريق نهاية؟ هل وجدت إجابة؟

- ألـم تسـمع قـولـة أندريه جيد: « ثق بالـذين يبحثـون عـن الحقيقـة، واحـذر أولئك الـذين عثـروا عليهـا...!

- أليس من العبث أن نبحث عن شيء إن كنا متأكدين أننـا لـن نجـده!

- ولم لا نفعل؟ هل نركن إلى الجهل المُريح؟

صمت طارق فترة غير قصيرة،وقد جاراه أبـوه في صمتـه ومنحـه المسـاحة التي يحتاجهـا عقلـه ليتنفـس! فجـأة نظـر إلى أبيـه متسـائلا وعلامات الرجـاء ترتسـم على وجهـه:

- بالرجـوع إلى الشـريط الـذي أحلتني عليـه، هـل تؤمن بتناسخ الأرواح يا والـدي؟ أليس هـذا شـبيه بما ورد في الديانـة الهندوسـية؟

ابتسـم الأب ولـم يجـب، بل أتى بحـركـةٍ من يديـه يحثّ بها طارق على الكلام.

توتر طارق، فقـد كان الأب يجيـد لعبـة السـيطرة، وبعـد تـردد قـال:

- مـاذا عـن الكتـاب، هـل تـرى فعـلا أنـه صائـب؟ هـل مـا عرفنـاه عـن الديـن كلّـه كـذب؟ ومـا الحقيقـة إذن؟ إن أسـئلة كهـذه قـد تهزّ عقيدتنـا الصحيحـة!

ابتسم السيد مصطفى بهدوء قائلا:

- مـا دمـت متأكـدا أنهـا صحيحـة فـلا خشـية عليهـا مـن الاهتزاز! لـم لا تمنـح نفسـك رحلـة في تاريـخ الإنسـان،

وتاريخ الأديان والفلسفة والعلوم. تجوّل في هذه الأكوان. ولا تحصر نفسك في صندوق واحد وتدّعي أنك أمسكت بمقاليد المعرفة.

وصدح صوت السيد مصطفى شدوا:

جئتُ لا أدري من أين لكني أتيت!

ولقد أبصرت قدّامي طريقا فمشيت

وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أم أبيت.

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري!

***

إذا كان هناك ما هو أشدّ خطورة من الإفراط في المخدّرات، فمن دون شك هو الإفراط في الوعي وإدراك الأشياء.

فرانك كافكا

أصاب طارق زلزال رجّ بعنف تلك السكينة اللذيذة التي طالما رَكَن إليها، الشعور بالتيه يكتُم أنفاسه. داخل رأسه تدور معركة حامية الوطيس، مناظراتٌ ومساجلات تنتهي بارتفاع الأصوات وتشابكها إلى أن تصير صريرا يشق رأسه نصفين بصداع لا يُطاق!

ألقى جسده على سريره المتهالك، ابتلعه كاملا حتى لم يكد يظهر منه إلا رأسه المُحترق بنار الأفكار المتحاربة.

نظر إلى السقف مباشرة، أغلق عينيه، وغاب في التفكير حدّ الاختناق...شعر أنه في حاجة إلى الهواء فاتجه نحو نافذته التي تُشرف على سلسلة جبال بعيدة، تظهر منها أنوار لامعة. كثيرا ما تأملها وشعر برغبة شديدة في الوصول إليها واكتشاف ماهيتها، لكنّه عندما فعل ذلك في أحد الأيام، وجد أنها مجرد أضواء عادية لا شيء مميز بها، فعرف أن جمالها كان يكمن في صورتها كما تبدو من بعيد، لا في حقيقتها! إن الاقتراب منها أفقدها سحرها!

تنفس طارق بعمق وتأمل الشارع الذي يحفظه عن ظهر قلب وهو يمتلئ بالجيران الذين عرفهم منذ سنين. شعر أنه غريب...

غريب تماما، كأن كل هؤلاء الناس الذين يحيطون به، غرباء، لا يفهمون لغته، ولا يُدركون معاناته!

***

لكي يتوصل المرء إلى الحقيقة، ينبغي عليه مرة واحدة في حياته أن يتخلص نهائياً من كل الآراء الشائعة التي تربى عليها وتلقاها من محيطه، ويعيد بناء أفكاره بشكل جذري من الأساس.

رينيه ديكارت

أخذ طارق جهاز التحكم عن بعد، وبدأ ينتقل بين القنوات بحثا عن فيلم يستحق المشاهدة، أوحتى لا يستحقها... الأهم أن يتناسى هذه المعضلة الوجودية التي طرأت على حياته! لكن هذا النوع من التحايل لم يكن فعّالا في إسكات صخب الأسئلة التي تقرع رأسه، فلم يجد غير أبيه ملجأ.

عاد إلى محراب والده الأثير مرّة أخرى: غرفة النوم المقدسة، التي لم يعتد أن تطأها قدمه إلا لأمر جَلَل. فعندما توفيت أمه، جعل أبوه من هذه الغرفة عالمه الخاص الذي يتّسعُ على امتداد الكتب التي تؤنس وحدته، وتُغنيه عن القريب والصديق.

طرق الباب في وجل فاق ذلك الذي كان يتملّكه وهو طفل صغير. أذِن له السيد مصطفى بالدخول، وها هي تلك الغرفة التي طالما اعتبرها منطقة محظورة. ما باله اليوم يراها سفينة عظيمة، تعب بِحار الكون غير عابئة بحدود أو قيود! ويرى أباه ربّانا عظيما يقف بفخر واعتزاز!

بادر السيد مصطفى قائلا:

- خيرا يا طارق؟

تلعثم طارق، وحارجوابا كأن كل ما كان يزعجه تبخر واختفى! بينما أشرق وجه السيد مصطفى بابتسامة هادئة قائلا:

- مبارك، أنت الآن في المرحلة الثانية.

- ثانية؟!

- نعم ابني العزيز، استيقظتَ يوما ما لتجد وُجُوها قيل لك أنها أسرتك فآمنت، ثم قيل لك هذا دينك وهذه عقيدتك، وهذه بلدك وتلك عشيرتك، فلم تُعارض بل لم تتوقف لحظة واحدة لتفكر! نعم لتفكر وتتسأل أ هؤلاء القوم صادقون أم كاذبون! مُحقون أم مخطئون! وبقيتَ تلوكُ ما يُقدّم لك، وتهضمه فيَسري في عروقك فتزيد إيمانا بأنك وعشيرتك وحدكم من تملكون الحقيقة!

هل تعرف أن هذه القصة البسيطة حد الخطورة جرت وتجري على الجميع؟! الجميع يُلقّن ويُوجّه.. ويؤمن إيمانا خالصا بما قُدّم له. ولا أحد - باستثناء قلّة قليلة- يملك جرأة المعارضة أو حتى المناقشة، وبين مختلف المؤمنين ضاعت الحقيقة، فإن كنت تريد الراحة والسلام، فابحث عنهما في الحقيقة، واعلم جيدا أنها ليست على طبق من ذهب. فهمت قصدي؟!

لا أنت ولا أخوك ولا حتى أمك أدركتم ما كنتُ أكابده من غربة، وأنا في أحضانكم وبوجودكم! خُضتُ رحلة طويلة عسيرة يا بُنيّ.. رحلة مع الذات أولا؛ لأيام طويلة كنت أشعر أن داخل رأسي

صوتان، أحدهما يشدني بقوة إلى منطقة الراحة والاستسلام، يقول لي: «وحيك كيف تتجرأ أن تسأل؟ ويلك كيف تتجرأ أن تفكر وتنظر!» وصوت آخر عالٍ مزعج قد يشتد به الصياح إلى أن يصير طبولا تقرع داخل رأسي، يقول: « لم التّعامي على المعضلات؟ لم تقبل على الآخر ما لا تقبله للذات؟» وبين الصوتين كنت أحترق طلبا لسكينة الحقيقة! لستُ ضدّ أحد، ولا أرغب في البطش بزرع أوولد، لم أرد غير حقيقة سنين ممتدّة عشتُها في وهم امتلاك الحقيقة المطلقة!

أمك الطيبة كانت تعتب عليّ اهمال الصلاة، وما عداها من شعائر لم تجد مني فيها تقصيرا، حتى في رمضان! كنتُ أشفق عليها من سطوة الحقيقة، وأجنح إلى أن أتركها تنعم بسلام عقيدتها، فلم أكن لأشارك المرض جريمة الفتك بقواها المُستنزفة! لكنك يا طارق أمل الغد، أنت بصمتي في الحياة، لذلك اخترتُ أن أشاركك صحوتي، فقد آن الآوان لنسمح لأنفسنا بالتفكير والنظر في أمرنا، بدل أن نسير عميانا على خطوات أموات ما زالوا يحكموننا!

***

لا أعرف ما الخطوات التي سأمشيها، لا أعرف ما نوع الحقيقة التي أبحث عنها، أعرف فقط أن عدم معرفتها أمر لا يحتمل بالنسبة لي..

خوسيه ساراماغو

عـاد طـارق إلى غرفتـه، أخـذ ورقـة وقلمـا على غير عادتـه، فهـو يُفضّـل مذكـرة الهاتـف، لكنـه هـذه اللحظـة يشـعر أنـه في حاجـة لخطـاب القلـم والورقـة! جـرّ قلمـه بخطـه الرشـيق:

«فيديـو بسـيط وكتـاب! ثنائـي كان كفيـلا بجعلـي أقضـي ليلـةً بيضاء وأنا أتأمل وأتقلب على جمر من الشك الذي لجم تفكيري وجعلني أشعر بالضآلة! وكفأر مشاكس، ظهرت فكـرة البحـث في النـت أمـام عينـي فجـأة، فتوجهـت لحاسـوبي ورقنـت أخيرا بعـد صياغـات كثيرة: «حقيقـة الديـن»

تهتُ بين الصفحـات المتباينـة، ثـم أغـراني شـعار موقـع التواصـل الاجتماعي فايسبوك، فإذا بي أجد مجموعات كثيرة تهتم بنفس الموضـوع، مناظـرات ومسـاجلات وأراء مختلفـة حـد التضـارب.

أنفقتُ وقتا طويلا في الاطلاع على مُحتواها، دون تعليق أو تفاعل، كأنـي عاجـز عـن تبنـي قضيـة أو الانتصـار لـرأي، لأني لـم أعلـم لأيّ رأي أنتصـر ؟! بعـد كلّ مـا رأيـت صـرتُ أشـعر أنـي أركـب أفعوانيـة ملاهـي شـاهقة تخـرُّ مـن عليـاء، الجميـع يدّعـي امتـلاك الحقيقـة!

الجميع يُجادل. وها أنا ذا أرثي طمأنينتي الفقيدة!اليوم فقط تمثّلتُ معنى قول القائل: «الجهل راحة».

ما زالت عيناي تقفزان من منشور لآخر، حتى استوقفتني تدوينة يقول صاحبها: «مشكلتي مع الأديان بشكل عام والمسيحية بشكل خاص-لأنها كانت ديني السابق- ليست فقط عدم منطقية قصصها وعدم اتساقها مع العلم والتاريخ والجغرافيا والأثار...بل هي في المقام الأول عدم إنسانيتها وانعدام أخلاقيتها، فهي تطالبني بأن أقبل من الإله ما يجب عليّ أن أرفضه من البشر!

يجب أن أرفض إعدام القاتل بالحرق حيا مراعاة لإنسانيتي. فجُرم القاتل مهما كان بشعا لا يبرر تنفيذ عقوبة بهذه الوحشية. لكن عليّ أن أقبل جحيما أبديا لأشخاص قد يكونون في منتهى الطيبة واللطف، لمجرد أنهم اختاروا أن يعتنقوا دينا آخر.

يجب أن أرفض تمييز الأب بين أولاده، لكن يجب أن أقبل أن يختار الله البعض للخلاص ويترك الآخرين للهلاك! وذلك بحسب عقيدة تعترف باختيار الله المطلق، فبكل مزاجية يحدد الإله من سينجو من غضبه ومن سيذوق العذاب! إن كان الامر كذلك، لم خلق الله التعساء؟ أليجعل منهم حطبا لجهنم؟

كيف يأمر الإله قوما بالتوجه إلى أراضي أقوام آخرين بدعوى نشر الدين، بسفك الدم، وقوة السيف! «أسلم تسلم» فإما تخضع لرؤيتنا ورغبتنا وإلا الموت أو الجزية عن احتقار ومذلّة؟

الإرهاب...الإكراه...القتل، والنهب... والاستيلاء على النساء والأطفال؟ !»

ملّ طارق من التسكع بين نوافذ شبكة النت، رماه الضجر إلى الشارع. يرى الناس كالمٌغيبين عن الإدراك، يراهم ضحايا تمّ التلاعب بهم منذ الطفولة،وبقوا عالقين بين قطبي الترهيب الترغيب! كيف لإله عادل أن يجازي بميزان غير عادل؟ فأين العدل في أن يُعطي الشخص عقابا أبديا ممتدا في الزمن وأبديا، على فعل محدود في الزمن بالسنين التي قضاها الإنسان على هذه الأرض؟!

أسئلة لا يمكن إلا أن تطرق خاطر كل إنسان عاقل، غير أن عقله يُغلق أبوابه أمام هول الوعيد، وشديد التهديد، فيركن إلى المنطقة الآمنة ويُفضل أن يكون مؤمنا!

***

أحيانا لا يريد الناس سماع الحقيقة، لأنهم لا يريدون رؤية
أوهامهم تتحطم

دوستويفسكي

هذا الصباح هجمت تلك الأسئلة الثلاث التي كانت تُشكّل مثلث العذاب بالنسبة لطارق على رأسه بإلحاح! كانت قاعدة المُثلث عبارة عن ذلك السؤال الذي لم يجد له جوابا ولا حتى اقترب من ذلك، وهو:

بما أن الله يعلم الغيب، وكان يعلم مُسبقا، حتى قبل أن يُقرر خلق الإنسان، الشقاء الذي سيتعرض له، ومصيره البئيس في الاحتراق الأبدي في نار جهنم، لماذا رغم ذلك استمر في خُطته، وخلق الإنسان!

وكان السؤال الثاني الذي يشكّل ذلك الضلع الشاهق لمثلث عذابه:

ما الذي يستفيده الله من الأدعية والتوسلات والاستعطفات المختلفة التي يقدّمها الإنسان في حالة من الانكسار والتذلّل؟ لماذا يجبر الإنسان أن يحتقر نفسه ويتوسل الرحمة بتلك الطريقة؟

أما الضلعُ الأخير فهو صورة الجنة، والنعيم الموعود، فقد كانت بالنسبة له، أمرا غير مقنعا تماما، ليس فقط من ناحية وجودها أو عدمه، بل من ناحية أخرى تماما! كان يرى الجنة انعكاسا لخيال صحراوي يتلهف على الماء: «تجري من تحتها

الأنهار...» ويعد بكل الأشياء التي كان يشتاق لها لكن شحّ البيئة الصحراوية حَرَمهُ منها كالفواكه والمياه: «وذُللت قطوفها تذليلا» «حدائق وأعنابا» أنهار من ماء غير آسن» «وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه» ... فهو يعد بأشياء لا تخرج إلا من عقل تفكير صحراوي، فقال أنه أعدّ حديقة بدون شمس: «لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا، ودانية عليهم ظلالها» وهذه أشياء قد تبدو برّاقة ومُغرية وجميلة لشخص عاش في بيئة حارّة، وليس لشخص يعيش في بيئة باردة ويقطع المسافات الطويلة بالطائرات حتى يزور بلدان يستمتع فيها بالشمس المشتهاة !

لم يكن يجد لأيٍ من هذه الأسئلة جوابا مُقنعا، مهما اجتهد، ومهما أعاد قراءة سور من القرآن، ومهما بحث على مواقع التواصل الاجتماعي ودخل في نقشات!

وداخل هذا المثلث كانت تتشاكس أسئلة أخرى، من قبيل:

كيف أكون واثقا ومتأكدا من أن ديني الإسلام هو الدين الصحيح الذي يريد لنا الله اتباعه، إذا كان هذا اعتقادا يتشاركه الملايين من معتنقي الأديان الأخرى؟ الجميع يدّعي أنه ورث الدين الحق عن أهله وعشيرته، لكن كيف أتأكد من ذلك؟!

وبالصدفة تعرّف طارق على تطبيق البال تالك paltalk والذي يُتيح إمكانية النقاش الحر بالصوت فقط مع الأشخاص يتشاركون نفس الاهتمام، وحتى فتح النقاش مع الفكر المُعارض.

ما جعله يرتاح لهذه المنصة التواصلية هو أنها تُحافظ على الخصوصية، وتُبقى الهوية الحقيقية للمستخدم مجهولة عن طريق استعمال اسم مستعار. وبذلك وجد طارق أخيرا

من يسمع صوته ويُحاوره، حتى وإن اختلف معه! كان ذلك شيئا رائعا بالنسبة له، قلّل من شعور الغربة الذي كان يجتاح حياته، وعرف أن هناك أعداد أكثر مما كان يتصوّر تُشاركه نفس رحلة البحث.

كثيرا ما دخل نقاشات حادة في معضلات دينية يراها غير منطقية، ولا يقبلها العقل، أو حتى في نقاش الممارسات اليومية كبعض الطقوس الدينية.

هذا اليوم حاول أحد الأشخاص أن يوضح في مُداخلته أن التشريعات الإسلامية غير صالحة لكل زمان ومكان، فأشار إلى الصلاة التي اعتبرها واجبا ثقيلا لا يُناسب سيرورة العصر الحديث، وإنما تناسب إنسانا متفرغا، مُمسِكا بزمام وقته، يملك أن يتفرّغ لتأدية الصلاة خمس مرّات باليوم بروحانية وتركيز، حتى يُحقق المغزى منها! بينما إنسان هذا العصر المطالب بمسؤوليات متعددة مترابطة العلاقات مع الآخر، والذي لم يعد يجد الوقت الكافي حتى لإراحة جسده، فالصلاة تفقد معناها وروحانيتها بتلك الطريقة، وتصير واجبا ثقيلا لا دافع له سوى الخوف من العقاب الموعود!

***

لا يمكن للنجوم أن تلمع دون ظلام

سقراط

هذا اليوم دخل طارق إلى غرفة المحادثة ليجد النقاش محتدا حول موضوع «تناقضات القران» لكن الشيء الذي كان يميز هذا النقاش هو صوت أنثوي قوي النبرة والحُجّة! انطق الصوت قائلا:

«ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، وها نحن قد وجدنا اختلافا كثيرا» كانت هذه أول جملة يداعب بها صوتها المميز سمْع طارق!

أليس قرآن محمد كتاب «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» أليس «قرآنا عربيا غير ذي عوج» لكن دعوني أخبركم أن هذا الكتاب المقدّس، الذي يُفترضُ أنه كلام الله قد تضمّن أكثر من 2500 خطأ يتفرع إلى عدة أنواع؛ فمنها الأخطاء العلمية، والتاريخية، والجغرافية، والحسابية، واللغوية! وقد فُصّل القول في كل نوع من أنواع هذه الأخطاء، ودُرست من طرف الباحثين.

اليوم يا سادة جاء عصر المعلومة ليُعرّي سوْءَة الجهل، فما على الشخص إلا أن يُلقي عنه عباءة الأولين، ويتخلّص من وهم امتلاك الحقيقة المُطلقة، ويقرأ المعطيات بحياديةودون انحياز، ولينعم بالنتيجة!

ومن أجل ذلك دعوني أحيلكم على كتاب «أخطاء القرآن الكريم» لسامي الذيب، لتكتشفوا أن هذا الكتاب المقدس الذي يُنسب لله كذبا وافتراء، هو في الحقيقة من تأليف البشر!

لقد جاء العلم يا سادة ليقول كلمة الحق التي لا يُعلى عليها؛ فبيّن أن الشمس لا تغربُ في عين حمئة، وأن الأرض ليست مُسطّحة، وأن الجنين لا يكون هيكلا عظميا ثم بعد ذلك يُكسى لحما... وغيرها كثير من الأخطاء التي أظهرت بما لا يدع مجالا للشك محدودية معارف مؤلف هذا الكتاب!

وجاءت حقوق الإنسان لتُعطي للمرأة حقها باعتبارها إنسانا، لا متاعا للذين قالوا «إن متاع الدنيا الزوجة الصالحة!» جاءت لتُنصفها من الضرب المشروع، والجنس الإجباري، والحياة المسلوبة!

فلروحك السلام أيها المعري، قُلت حقا وصدقا حين أنشدت:

أفِيقوا أفِيقوا يا غُواةُ فإنّما ** دِياناتكمْ مكرٌ من القُدَماء
أرادُوا بها جَمعَ الحُطام فأدركوا ** وبادوا وماتتْ سُنّةُ اللؤماء

وأضافت:

غير أن سُنّتهم لم تمُت أيها المعري، بل هم أنفسهم لم يموتوا! بل ما زالوا أحياء يحكموننا، يُفكّرون عنّا، ويُقدمون لنا تشريعات لننفذها ونقول سمعنا وأطعنا! ويجيبون عن أسئلتنا الوجودية فنقول آمنا وصدّقنا! ولا نُكلّف أنفسنا ولو مرّة واحدة في العمر، أن نتأمل العالم المُتطور حولنا! حتى الأخلاق نفسها تتطور،

فما كان مُباحا وعاديا في زمن صار مستقبحا ومرفوضا في زمن متقدم عليه، لأن البشر في سعي حثيث للتطور من أجل الرقي بالإنسان، لا سجنِ عقله بين ثنائية الترغيب والترهيب!»

لقد كانت مُداخلتها قوّية مؤثرة، تمنى طارق لو أنها استمرت في الكلام لوقت أطول، لكن صوتها انطفأ مع تحيتها الأخيرة وغاب.

اسمها المستعار إكست بليفر ex-believer، هو الاسم الوحيد الذي تمكن مع جذب انتباهه، إلى درجة أنه صار ينتظر بشوق أن تظهر في غرفة المحاورة، وما إن تهلّ بمداخلة جديدة حتى يجد نفسه قد أصاخ السمع في انتباه وإكبار!

ودون اتفاق وجد طارق نفسه يُعقّب مُدافعا على طرح هذا الصوت القوي، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى تمَّ التواصل بينه وصديقته الجديدة سلوى!

كان طارق سعيدا لأنه تمكن من الحصول على صديقة مثل سلوى، حواراتهما معا، ومُداخلاتها القوية كانت تنزل غيثا على روحه العطشانة،

كان يشعر أنه أخيرا وجد الفتاة المنشودة، فتاة تهتم بشيء آخر غير الزواج!

***

أصعب معركة في حياتك، عندما يدفعك الناس إلى أن تكون
شخصا غيرك

ويليام شكسبير

حياة سلوى في الواقع، كانت بعيدة كل البعد عما تخيّلها طارق، لقد كانت أسيرة تُثقلها أغلالُ قسوة الأب وجبروته!ورغم أنها لم تتجرّع من كأس الفَقد كما فعل طارق، إلا أنها اكتوت وأخواتها بنارالاحتقارفقط لأنهن إناث!

أبوها الهاشمي لم يجد غضاضة فيم يفعل، بل هو راضٍ كلّ الرضا، مستريح الضميرلقِوامته وسداد رؤيته أمام هذه المخلوقات الضعيفة السفيهة الناقصة التي تستلزم الوصاية في كل أمرها، والشدة في معاملتها، حتى لا تزيغ أو تطغى!

هذا الصباح وبسبب إلحاح بسيط من زوجته سعيدة على طلب بعض المال الذي أرادته لقضاء حاجات بناتها من مستلزمات نسائية، تلقت صفعة قوية من الهاشمي طرحتها أرضا، وهرعت الأخوات الثلاث إلى أمّهن مُوجّهات ظهورهن نحو أبيهنّ حتى يتلقّين الضربات بدلا عنها!

احتمت سعيدة بأقرب غرفة وهي تجمع بناتها حولها، كانت أجواء هيستيرية، اختلط فيها الصراخ بالبكاء والنواح، والتوسلات من البنتين الكبيرتين للأب الغاضب، والذي يصيح كأنه دبٌّ أسود هائج:

- لا كلام فوق كلامي!

لقد شعرت سلوى وأختاها فِداء وجُهينة برعبٍ جعل أسنانهن تصطكّ، وركبهن ترتجف وهن تُراقبن أمّهُن تنجح بأعجوبة في الإفلات من ضربة قوية بلوح خشبي سميك، وتُغلق الباب على أبيهن الهائج خارجا، وتتحصّن وبناتها داخل المنزل الذي يقع على سفح جبل في الباديةِ مجاورة للمدينة الكبيرة!

رجعُ صدى صوت الهاشمي المُخيف كان يرْتدّ في الجبل المجاور، والبيت المُنعزل يقبع تحت رحمة السماء.

الجيران أبعد من أن تصلهم أصوات الاستغاثة! وحتى إن فعلت، وانتبهوا لما يحصل، فهم يحتاجون وقتا لقطع المسافة الكبيرة الفاصلة بين المنزلين، وقتٌ قد لا تملكه الأم المرعوبة وبناتها!

كانت الأخوات الثلاث مذعورات، قلوبهن خافقة، وعيونهن جاحظة ومُترقّبة. نُواح الأم يتصاعد مع كل ضربة يُوجّهها الهاشمي إلى الباب الذي تماسَك باستماتة كأنه حمل على عاتقه مسؤولية حماية هؤلاء الخائفات، وأمهنّ تتضرّع إلى الله بالدعاء، ليَقِيهن شرّ هذا الوحش الضاري!

فجأة سكن الصّوت المُدوّي لتلك الضربات التي كانت تقع سياط على أرواح البنات وأمهن المُرتعبة، توقفت الأيدي عن الارتعاش، وهدأ خفقان القلوب إلى أن انفجر دوي ضربة قوية على شباك النافذة! خوف.. ذعر... كل الكلمات لا تصف

شعور بنات يُحاول أبوهن تحطيم شباك النافذة حتى يتمكن من الدخول والفَتْكِ بأمّهن!

تكوّمت البنات مُلتصقات بأمهن التي لم تتوقف عن التبتُّل لله لعله ينقذهم برحمته! ثم صارصوت أنفاس الهاشمي المترددة قريبا وواضحا وهو يُصارع الشباك الحديدي في محاولة لانتزاعه، وفي النهاية تمكّن منه وطرحه جانبا، وقفزمن النافذة والشَرر يتطاير من عينيه!

انهارت سعيدة وهي تسمع خطواته داخل البيت متوجها إليهن مباشرة، طلبت من بناتها إغماض أعينهم، وكذلك فعلت هي في انتظارالقدر! لكن صوت سلوى أرغمهن جميعا على فتح أعينهن مجددا، فلاحت لهن واقفة كأنها جندي، تحمل في يديها السكين الكبيرالخاص بعيد الأضحى، والذي اعتاد الهاشمي أن يُخبّئه فوق خزانة ملابسه! نظرت سلوى مباشرة إلى عينيه قائلة:

- ارحل يا أبي!

بقي الهاشمي واجما، جرعةُ الدهشةٍ الكبيرة جعلته عاجزا عن الرد! فلم يستوعب أن ترفع الفتاة سلاحا في وجهه وتتحداه، فهو سيّد هذا المنزل والآمر الناهي، فأنّى لها أن تشُقّ عصا الطاعة، وتقف منه وقفة النِد للندّ؟!

همّ بالتقدم خطوة نحوها، فرفعت السكين الكبير أكثر واستعدّت للأسوأ!

لحظتها أدركَ أنّها قادرةٌ على فِعلها، قادرةٌ على الدّفاع عن أخْتيها وأمّها حتّى الموت! فلمْ يجد إلا الانسحاب وهو يُوجّه ترسانة من الألفاظ الجارحة المليئة بالتهديد والوعيد!

رحل الأب، ولم يرحل الخوف، جُهينة أصغر الأخوات حظيت بنوم مُتقطع ونوبات هلع، أما سلوى، فلم يجد النوم سبيله إلى عينيها المُترقبّتين.

نُباح الكِلاب الذي اعتادوه صار مُرعبا تلك الليلة، أيُّ حركة في بستان المنزل كانت تثير حالة استنفار!

كانت ليلة طويلة، وعمرا أطول لقصة سلوى التي وجدت والدتها تعودُ لأحضان أبيها مع أول عرضٍ للصُلح!

***

الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع

طه حسين

بعد يومين من الحادثة عادت سلوى للتواصل مع طارق الذي أخذته الظنون كل مأخذ. لكن سلوى لم تكن تملك أن تُقحِمه في حياتها الخاصّة، فهو لم يفعل بعد شيئا يستثنيه من قاعدتها الأثيرة «ليس كل شيء يُقال» هي تُفضّل الصّمت، لكن صمتها الثقيل هذا سحبها لقعرِ بركة الاكتئاب الآسنة.

كلما فكّرت في مكان أبيها من حياتها، شعرت بطعم مُرّ زُعاف يخترق حلقها ويمتد إلى قلبها فيُحرقه! شعرت بمعنى الظلم والاستئساد، وخَبِرت معنى الاستسلام والخنوع، فنَأت بنفسها حتى عن أختيها وأمها المُستسلمة!

حديقة المنزل كانت البهجة الوحيدة لسلوى، كان يحلو لها أن تستلقي تحت شجرة صفصافٍ عظيمة، فهي صديقتها الوحيدة، عندما تهتزّ أوراقها ذات الرائحة المميزة المُنعشة، تشعر كأنها تُمسّد شعرها وتغني لها أغنية بحفيف أوراقها، كانت تشعر بالسكينة، واسترخاءٍ يَسْري في سائر جسدها، لذلك عشقتْ شجرة الصفصاف وحفيفها اللذيذ. وتماما كالعقّاد كانت مهتمة بالحشرات، تقضي خلوتها في مراقبتها عالمها، ولعلها وجدت في ذلك خير تعويض عن عزلتها في تلك البادية النائية.

بعد الحادثة صار الهاشمي يُعامل سلوى بقسوة مُضاعفة، ويتجاهلها في مواقف لا تَحتمل التجاهل، ثم ينفجر فيها في مواقف تافهة لا تستحق ذلك الإعصار! لكن هذا ما كان ليجرحها بقدرما فعل تصرّف أمها سعيدة! لقد صفعها تساهل أمها معه وأخافها مدى خضوعها له! وظلّت سلوى تستعيد ما حصل في ذلك الحادث في كلّ لحظة من يومها. لم تظن يوما أنها ستصل إلى درجةٍ تكون فيها مُستعدّةً للدم والموت!

فكرّت سلوى أن العمل وتحقيق الذات، هو قارب النجاة الوحيد من سطوة هذا الأب! فصار أمنية تتلألأ مع نجوم السماء الفسيحة التي تتأملها كلّ ليلة، وحدهُ امتدادها اللامتناهي استطاع أن يغسل أدران الظلم من روحها.

كانت سلوى تحثّ أختيها فِداء وجُهينة على الدّرس والتحصِيل، لم ترغب أن تكون حياتهن نسخة من حياة أمّهن! وحمدت الله أن عمّها الأكبرعبد الله يتدخل بحزم في شأن مصلحتهن، ويحرص على أن تلتحِقن بتعليمهنّ كلّ سنة. وحتى وهو في ديار الغُربة، كانت كلمته نافدة على أخيه الهاشمي الذي لم يكن ينصاع له احتراما وتقديرا -وإن ادّعى ذلك- بل خضوعا وخوفا من فقدان المبلغ المالي الذي يُخصّصه عبد الله من أجل البنات الثلاث!

عبد الله كان شخصا مختلفا تماما عن أخيهالهاشمي، بل كان نقيضا له: مرحا، حنونا مُحبا، ونافذ القرار بين الأهل والمعارف، ولولاه لهجرت سلوى وأختاها الدراسة مباشرة بعد الشهادة الابتدائية!

وفي غياب العم عبد الله كانت سلوى تَعتبر كُتّابها المُفضلين أباءً روحيين لها، يسدون فراغ ثغرة غيابه، لذلك فما إن كانت تدخل عالم القراءة والبحث، حتّى يتملّكها شعور غريب بالشراهة إلى المعرفة، والفضول إلى الاكتشاف! كانت تشعر أن يومها غير كافٍ لاستيعاب شغفها وعطشها إلى الحقيقة، وتوقها إلى السعي خلف كل سؤال يطرق فِكرها ووجدانها.

وعندما يأخذ منها التعب مأخذه، وتذبل عيناها أمام نور شاشة الحاسوب، تلجأ إلى نافذتها الأثيرة التي كانت تطلّ على سهلٍ مُمتدٍّ يحدّهُ الأفق، بينما يتربّع المنزل الذي يؤويهم مُنتصبا على سفح أكبر جبلٍفي المنطقة، حيث تبدو الجبال المجاورة كأنها في وضعية ركوع لعظمته وشموخه، وتلوح الشمس من بعيد، تودّع الجبل الراسيحزينةً على فراقه، تنسحب ببطء وشجن، رويدا رويدا.. تتسلّل، لتطلع على جبل جديد في الجهة الأخرى من العالم! لم تنسَ قطّ كيف أقحمت نفسها في موقف مُحرج داخل قاعة الدرس وعلى مَرأى من جميع التلاميذ المُنكرين والساخرين. كان ذلك عندما وجّهت سؤالها للأستاذ مُستفسرة عن ادعاء غروب الشمس في عينٍ حمئة، وتعارضه مع حقيقة دوران الأرض الشمس! فاكتفى الأستاذ بإلجام الأفواه المُتهكّمة للتلاميذ المشاغبين، وامتنع عن الجواب بلباقة.

كان التلاميذ يعتبرون سلوى فتاة غريبة لأنها تؤثر الوحدة، وتُفضّل الصمت، فإذا أتت باستفسار أو تساؤل أثارت الانكار والاستغراب!

وخارج أسوار المؤسسة التعليمية، لم تكن تمَلّ من مراقبة حركة الطبيعة، كانت تُحبّ أن ترى الجبل المقابل للمنزل وقد أوْلَى ظهره للشمس التي تغرب في الأفق، فيَشرعُ الظلام في الظهور على سَفحه، كأنه ينبثق من الأرضِ بأمرٍ من كوكب الشمس العظيم، فينتشر في الفضاء مُسَربِلا بردائه الكالح كل شيء يمتدّ إليه.

هكذا تراءى لها الظلام الذي كانت تَهابُه كثيرا، وياللغرابة فهي من عُشاق الليل! تهيم في نجومه، ويأخذها جمال قَمره إلى عالم الخيال! لكنه مع ذلك ليُنغّص بهجتها، وقد يتمادى ليبُثّ الرُّعب في أوصالها بأصواتهِ المخيفة! كانت تشعر أنه يُخفي كائنات شريرة لا تفتر عن مراقبتها والتربّص بها! سكنتها هذه الفكرة منذ الطفولة، منذ سمعت قصة الشيطان والجنّة لأول مرّة!

وكما يتكيف الإنسان مع النوائب ويتعلم التعايش معها، تكيّفت سلوى مع مخاوفها، ليس فقط المتعلقة بالظلام، ولكن تلك المتعلقة بضبابية المستقبل! واستعار جحيم الحاضر في كنف أبيها الهاشمي وتحت سقف بيته!

كانت تحلم بالأمان والكرامة والمحبة، لكن السبيل إلى تحقيقه لم يكن سهلا، خاصة بالنسبة لفتاةٍ فقيرة المال والحب، هكذا كانت ترى حياتها، شحيحةً شاحبةً بِلا ألوان!

كانت تنظر لأختيها بألم! ودّتْ لو تمكّنتْ من حمايتهما من سِياط الحزام الجلدي لأبيها كلّما حاسبهما على تأخير الصلاة أو إهمالها، أرادت بشدّة أن تدفع عنهن ألم الجسد والروح.

وكانت تحلم أن تراهما فتاتين طبيعيتين تحضيان بالصديقات، ويُسمح لهن بالتواجد في أماكن أخرى من هذا الكون الفسيح باستثناء البيت والمدرسة!

هي تثق أن لهما أحلامها الخاصة بعيدا عن هذا القفر الخالي، فهي أيضا تملك أحلاما، لكنهن لا تَبُحن بأحلامهن،خشيةَ أن تنقلها الرياح لمسامع أبيهن، فيئدها في المهد قبل أن ترى النور!

كيف تمرّ الدقائق على فتاة ترى الكُره في عيني أبيها كلّ يوم!؟ تشعر باشمئزازه مع كلّ حولقة يُلقيها كلما لمحها بصره، فقط لأنها أنثى!كيف تمرّ الأيام؟؟ لا أحد يدري، بل لا أحد يهتم، فلا يُؤلم الجرح إلا من به ألم!

***

يمكن للشخص أن يسبب الأذى لآخرين ليس فقط عن طريق الفعل بل أيضا عن طريق الامتناع عن الفعل، وهو في كلتا الحالتين مسؤول أمامهم عن الضرر.

جون ستيوارت ميل

انتهت العُطلة الصيفية الطويلة، وحلّ الموسم الدراسي، وعادت سلوى مع أسرتها إلى منزلهم بالمدينة الكبيرة، مُخلّفين منزل عمّهم بين تلك الجبال البعيدة.

لكن أم سلوى وبناتها لم تحضين بالسلام لمدّة طويلة، فبينما كنّ يقمن بأعمال المنزل الروتينية تعالت صرخات فِداء في أرجاء المنزل!

هرعت سعيدة وابنتها الصغيرة جُهينة، فوجدتا فِداء مُلقاة على الأرض وهي تُجلد بالحزام الثقيل، والهاشمي يخور كثور هائج! وعندما حاولت سعيدة إقناعه بالتوقف، وجّه لها ضربة قوية جعلتها تسقط أرضا، بينما لم تجد جُهينة إلا البكاء والرجاء ملجأ!

كانت الفتاة المراهقة تستغيث بأمّها العاجزة، وتُحاول بكل ما استطاعت أن تقِي نفسها شرّ الضربات القويّة المُتوالية! تُغطّي وجهها حينا، وتضع رأسها بين ذراعيها حينا آخر، وأحيانا كثيرة تمُدّ يدها في رجاء واستعطاف لا يجد من الهاشمي إلا وجها مشمئزا، والمزيد من العنف!

لم تُجدِ توسلات سعيدة، فدفعت بجسدها لتصنع حاجزا بين ابنتها فِداء وبين الحزام الجلدي المُلتهب الذي أشعل النار على

ظهرها، بينما ضمّت ابنتها المُختلجة إلى صدرها، وهو الشيء الذي زاد من استفزاز الأب الغاضب، فجرّها من كتفيها ككيس قمح، وألقى بها داخل غرفة نوم الأخوات الثلاث، وأوصد الباب...

بعد انتهاء العاصفة، وفي ركن غرفتها البارد كانت فِداء تجلس القرفصاء وقد صار جسدها لوحة تجريدية بدون عنوان! صرير الباب جعلها تخرج رأسها المُتَورِّم من بين ركبتيها، لتنظر مباشرة إلى عيني أمها الدامعتين المُشفقتين. اقتربت سعيدة من ابنتها وضمّتها وروح كلٍ منهما تنضح بشعور القهر والظلم، لكن الأم كانت تختنق بشعور آخر؛ إنه العجز!

ضمّت سعيدة ابنتها بقوّة وهمست في أذنها أغنيتها الأثيرة:

عانِقِني.. عانقيني.. عانقيني

ضُميني بحنان.. ولا تفلتيني أبدا

عانقيني.. عانقيني.. عانقيني

ضُمّيني.. سيأتي الربيع غدا

أودعت سعيدة ابنتها سريرها، أطفأت النور وسحبت الباب بهدوء، وهرعت لتلبية نداء زوجها الذي لا يُعصى له أمر!

عادت سلوى إلى المنزل بعد إنهاء محاضراتها المسائية، فوجدت أختها فِداء وقد تزيّن جسدها بألوان مُختلفة، كانت تبدو كأسيرة حربٍ نَجَت من الموت بأعجوبة! لم تكن قد رأت رأس أختها المحلوق الذي لفّته بغطاء منسدل.

اشتعل صدر سلوى غيضا وحنقا، وطلبت من أمّها أن توافق على تقديم بلاغ للشرطة في حق أبيها، لكن سعيدة اعترضت بشدّة، وحاولت اقناع بناتها الثلاث باللجوء إلى الدعاء وطلب الهداية لأبيهما من الله!

**

في غرفة نوم الوالدين، تعالى شخير الهاشمي، لكن سعيدة لم تجد للنوم سبيلا؛ الضربات الطائشة التي تلقتها أثناء جلد فِداء مازالت تشتعل نارا في ظهرها، غير أن ألم الجسد يهون أمام ألم الروح وهي ترى فلذة كبدها تتعرض للتعنيف، وتستغيث، وهي عاجزة عن حمايتها!

أدركت أن الهاشمي لم يتقبّل ما فعلته بشعرها الذي قامت بحلاقته تماما. لقد صُدم وثار غضبا، غير أن ضربها لم يشفِ غليله، فأشبعها سبا ولعنا، وختم عاصفته بوصفها بالمُسترجلة!

لم تَأبه سعيدة لزوبعة الغضب التي ابتلعتها وبناتها، بقدر ما كانت مرعوبة مما يحصل مع فِداء. كانت تتساءل عن السبب الذي دفعها للإقدام على مثل هذا الفعل؟! لماذا قد ترغب فتاة شابة في غاية البهاء في تشويه ذلك الجمال والتشبّه بالذكور؟!

تركت سعيدة سريرها بهدوء، وتوجّهت إلى غرفة بناتها، كانت سلوى وجُهينة تغطّان في النوم، بينما سرير فِداء كان فارغا! تجمّد الدم في عروقها، شعرت أن قلبها قفز من صدرها وارتطم

بالأرض بقوّة، وأول فكرة خطرت ببالها كانت: «هل يمكن أن تهرب فِداء من المنزل؟؟»

هرعت سعيدة متنقّلة في أرجاء المنزل وهي تبحث عن فداء، إلى أن وجدتها متكوّمة على نفسها في الشرفة، غارقة في سيلٍ من الدموع!

عندما لمحت فِداء أمّها بدأت تنشج بقوة، فكان صدرها يهتزّ صعودا ونزولا، وعيناها تُمطران دمعا مِدرارا، ثم ما لبثت أن أغلقت عينيها بشدة، كأنها ترفض أن ترى العالم ينهار حولها والأرض تحت قدميها، فأين يلوذ المرء إن تنكّر له موطنه!؟ وهذا البيت الذي كان لها موطنا قضت فيه معظم أيام عمرها، صار يُضيّق الخِناق عليها، فحاكمه جائر لا يرحم!

هرعت سعيدة إليها وعانقاها بقوة، وضعت رأسها على صدرها وهي تُمسّد شعرها الأملس، تماما كأيام الطفولة البعيدة، وقالت بصوت هامس منكسر، وعينان دامعتان راجيتان:

- قولي لي يا ابنتي، يا كبدي وقطعة مني؛ أخبري أمك بما يجيش في صدرك، أ ما زلت غاضبة من والدك ؟

لم ترد فداء إلا ببكاء متواصل، كانت عاجزة عن الكلام، فكيف تصف لأمها مسرحية تُشارك هي نفسها في إخراج مشاهدها، أليست هي الأم الخانعة التي لم تقل «لا» مُطلقا! لُقّنَت طاعة الزوج، وقبله الأب والأخ، فأذعنت، وللاستسلام رَكَنت!

أطالت فِداء النظر في وجه أمها المُشفق، تلك التجاعيد أثارٌ شاهدة على تاريخ طويل من الصبر والجلَد، أما ذلك الرأس

فقد أقنعوه أن عليه أن يبقى منكسا ولا يُرفع فيزيغ بصره في ملكوت الله!

أخذت سعيدة وجه ابنتها بين يديها وتفرست في ملامحها التي مازالت تلبس ثوب الطفولة. قبّلتها على جبهتها وقالت:

- أعلم أنك تلومينني لأني لا أقف في وجه أبيك، لكن الأوان قد فات على ذلك يا ابنتي، ولم يبق لي إلا الرضا بالقدر!

همّت فداء بالردّ على أمها، فقاطعتها قائلة:

- ما رأيك أن تأخذي حماما سريعا؟

ردت فداء مُستغربةً خائبة:

- الآن يا أمي؟!

- نعم الآن، وهل هناك مانع؟؟ هيا حبيبتي الحمام ينتظرك، وسأعد لك فنجانا كبيرا من الحليب الساخن مع بعض الأعشاب المهدئة.

اتجهت سعيدة نحو المطبخ، وأعدّت فنجانا من الحليب وأضافت له بعض الأعشاب المُهدئة، وقبل أن تحمله إلى ابنتها سحبتباقة من إكليل الجبل وأخذته معها إلى الغرفة، لعل رائحته تُنعش أجواءها.

وضعت الفنجان على طاولةٍمحاذية للسرير، وتوجّهت إلى طرفه الأيمن لتعلق إكليل الجبل، وعندما همّت بالانتقال الى الطرف الأيسر أزاحت المخدة عن مكانها، فتفاجأت بوجود

كتاب تحتها، حملته بين يديها فإذا به كتاب لجون ستيورت ميل، وعنوانه: «استعباد النساء»

تفاجأت سعيدة بشكل كبير، فلم تتوقع أن تجد كتابا من هذا النوع ضمن اهتمامات ابنتها! تنبّهت لخطوات فِداء وهي تقترب من الغرفة، فكّرت أن تُعيد الكتاب إلى مكانه وتتظاهر بأنها لم تره! وقبل أن تتخذ قرارها كان الآوان قد فات، إذ دخلت فِداء الغرفة، وكان أول ما سقطت عليه عيناها هو الكتاب، توقفت مكانها جامدة لا تتحرك، فبادرتها سعيدة:

- اغلقي باب الغرفة، وإلا أصبت بنزلة برد، واشربي حليبك قبل أن يبرد، ودعينا نتحدث عن هذا الكتاب، أخبريني يا فِداء من أين حصلت عليه؟

لم تكن فِداء تشعر برغبة في خوض هذا النقاش، فردّت باقتضاب:

- من المكتبة العامة يا أمي.

وما الداعي لاختيارك هذا الموضوع يا فداء؟ ومن الذي أحالك عليه؟

- بعض الأصدقاء!

أي أصدقاء هؤلاء؟! لا أعرف لك أصدقاء يا فِداء لم تحدثيني قط عن أصدقاء يهتمّون بمؤلفات الغرب الكافر! وما لك أنت وتاريخ قهر النساء؟

ردّت فِداء وهي تُحاول جاهدة كضم غيضها مما سمعت:

- لكن الأمر ما زال مستمرا يا أمي، ألا ترين أننا أنفسنا نعيش القهر والاستعباد!؟قالت سعيدة بانفعال:

- ألهذا قُمتِ بحلاقة شعرك؟ أتتنكرين لأنوثتك؟ يجب أن ترضي بالدور الذي خلقك الله من أجله؟؟

قاطعتها فِداءبانفعال:

كفى يا أمي! تُشعرينني بأني دُمية، ولا ترين، -ولا حتى أبي- أنني روح تتلمس طريقها نحو الحياة، فلمَ الضربُ؟ ولمَ الأسرُ؟ ولمَ القسوة؟

أغلقت فِداء عينيها بشدّة، وأخرجت صوتا حانقا مكتوما:

- أو تدرين يا أمي ما يزيد الطين بلّة؟! أن هذا الوباء في كل مكان، في الشارع والسوق والمدرسة، فمن غيرُ المرأة يتحمّل وِزر اعتلال الفكر وتحجّر البصر!

لا تجد المرأة إلا الإدانة والإهانة، فأين التكريم؟ بل أين التوقير والتعظيم لمخلوق يشارك الرجل صفة الإنسانية، يُقاسمه الحياة بحلوها ومُرها، فلماذا الاستعلاء يا أمّةَ القِوامة؟

انظري إلى مقدار الألم الذي سبّبه الرجل للمرأة، هو قاتلها ومُغتصبها، وسجّانها، ووليّها وصاحب الأمر في حياتها كلها، فإن لم تكن هذه عبودية فبالله عليك ما هي العبودية!؟

ألا يتذكر أحد مآسي الفتيات المغتصبات والزوجات المقتولات والمُعنّفات؟! ألا يجود عليهن بدقيقة من وقته يقضيها في تخيل ما كابدنَه وهنّ يعشن تلك اللحظات؛ دقائق ثقيلة وساعات... بل سنوات من الرعب والألم!

ردت سعيدة في انفعال:

- لقد أخفتني يا فِداء، هل حصل معك شيء كهذا؟ أرجوك أخبريني يا ابنتي!

ردّت فِداء بإصرار:

- لا يا أمي، لا تقلقي بشأن جسدي، فهو محفوظ كما تريدون له أن يكون، لكن اسأليني عن نفسي وروحي إن كانتا قد تعرّضتا للاغتصاب!

ارتبكت سعيدة قائلة:

- وما الذي دفعك للتشبه بالذكور؟ أتريدين أن تكوني مثلهم ؟

قالت فِداء باستسلام:

- لا أرغب أن أنتمي للفريق الضعيف.. الخاسر. لا أريد ثوب الضحية يا أمي! ولا أريد التشبّه بالذكور، بل أن أتقي شرّهم!

***

أ كثر المعارك البشرية إيلاماً لا تكون بين الخير والشر، بل بين
أهل الخير بعضهم بعضاً.

باربارة جريزوتي هاريسون

لم تعدْ سلوى تُطيق صبرا بعدما حصل مع أختها فِداء التي أتَت على كلّ شعرة فوق رأسها بآلة الحلاقة، لم تعد تتحمّل أن تسقطن واحدة بعد الأخرى ضحايا لتفكير أبيها البالي وتسلّطه!

لو أنّ أمّها أوقفت هذا النزيف من البداية! لو أنها فقط أدركت أن مُداهنة المخطئ خطأ أكبر!

قرّرت أن تُواجهها هذه المرّة، أن تُعري أمامها كل الآلام التي سبّبها لهُنّ هذا الاختيار، الجراح التي أحدثها قرار الاستمرار بالعيش مع زوج مُتسلط وأب عديم المشاعر!

لذلك قصدّت المطبخ حيث اعتادت أمها أن تجلس عند زاوية أعدّت بها مُتكأ وتلفازا صغيرا! وكقنبلة مُدوّية انفجرت سلوى بكل ما اختزنت من ألم:

- توقفي يا أمي، كفي عن ارتكاب هذه الجريمة في حقنا وفي حقّ نفسك! كيف تُطِيعين رجلا يجعل من أيامك سوادا؟! وأحلام بناتك رمادا!؟ لا يجيد إلا لغة والسب واللعن... غير مُبالٍ بمقدار الأذيّة التي يُسببها لنا بذلك!

أ كل هذا لأنه لم يُرزق بولد ذكر؟! وما ذنبنا نحن يا الله!!

سعيدة التي بقيت في هدوئها المُعتاد لم تُحرّك ساكنا سوى دمعةٍ يتيمة انسابت ببطء على خدها، وبعد برهة نظرت إلى عيني سلوى مُباشرة قائلة:

- بل رُزق بالمولود الذكر وشاءت إرادة الله أن يكون من أهل الجنة، لقد رحل بسبب خَطْبٍ لا أرغبُ في أن أعْرضَ له الآن! لكن يبدو أن خيبة أبيك فاقت خيبتي الثقيلة من فقدان ذلك الولد الذي لم يتكرر مجيئه حتى بعد ثلاث أطفال بعده!

في كلّ حملٍ كنتُ أتضرع إلى الله بالدعاء حتى يرزقنا ولدا ذكرا، من أجل أبيك لا من أجلي، لكن مشيئة الله قضت أن يرزقنا بالبنات، فكنتِ أنت ففداء ثم جُهينة.

لقد كنتُ راضية ومُسلّمة لأمر الله، غير أن أباك لم يتقبّل قطّ ما حصل، وفي خلوتنا كان دائما يُردد: «لو عاش ابني، لما كنتُ الآن رجلا أبترا!»

تعالت ضربات قلب سلوى، وهي تسمع لأول مرة من أمها أن لها أخا مُتوفَى، راودها الفضول حول سبب عدم وجود اسمه في الدفتر العائلي، لكن لسانها أُلجم عن مُناقشة تفاصيل كهذه أمام هول الصدمة!

الارتباك سيطر عليها، لأول مرّة يتعطّل تفكيرها ويُشلّ تماما لدرجة أنها لم تعرف ما عليها فعله، أتعانق أمها مُعزّية أم تصرخ في وجهها مُحتجّة؟!

وبعد تردّد ألقت سلوى سؤالها:

- أ أنت أيضا يا أمي كنتِ تحلمين بالمولود الذكر؟ أ طوال هذه السنين كنتما تتحملان تربيتنا كفرضٍ من القدر؟

ردّت سعيدة بهدوئها المُعتاد:

- يوما ما ستتزوجين يا سلوى، وستجدين نفسك دون شعور تُفكرين تماما كما أُفكر!

ردت سلوى، وهي تتراجع خطواتٍ إلى الوراء في اتجاه الباب:

- أوه.. لا يا أمي! قطعا لن أفعل!

وقبل أن تخرج سلوى من باب المطبخ، استوقفتها سعيدة قائلة:

- ما مشكلتك يا سلوى؟ لِم أنت متمردة وثائرة على رجلٍ قضى عمرا في إطعامك وإيوائك؟ ألا تتحملين منه طبعه الحاد؟!

ردت سلوى باستنكار:

- طبعهُ الحاد؟؟؟ إنه عنف يا أمي، بل عنفان: جسدي ومعنوي!وهل الأبوة تسلط أم أنها تكليف ومسؤولية؟!

ردّت سعيدة بصوت مستعطف:

- إنه رجل!!

أجابت سلوى:

- لا أظن ذلك!

***

نهضت سلوى تحمل خيبتها، فارة من هذا الحوار الذي لا يزيد روحها المجروحة إلا جراحا جديدة، فاستوقفتها سعيدة بصوتٍ خافت ضعيف:

لقد دفعتُ ثمن حفاظي على هذه الأسرة يا ابنتي! لم أشأ أن تُشير إليّ الأصابع بكلمة «مطلّقة»! نظرتُ حولي فوجدت شكواي على لسان جلّ النساء، فلا واحدة نجت من سيطرة أب أو أخ زوج! فسلّمنا جميعا ورضينا بما كتب الله علينا. لكن ما لم أُطِقه ولم أملك عليه احتمالا هو ظلم الخيانة المشروعة! لقد دفعتُ ثمن نجاتي من احتراقٍ ممتد مُستطير، ولولا تدخل جدّك وجدّتك رحمهما الله، لذقتُ عذاب احتراق القلب والروح! فقد همّ أبوك بالزواج من امرأة أخرى، فسعى إليّ مُخبرا لا مستشيرا! فلم أملك نفسي إلا وقد خرجتُ عن طوري فشققتُ جيبي، ولطمتُ وجهي حتى اختلط الدّم بالدمع!

أذكر ذلك اليوم كأني عشته البارحة، رعبه ما زال يسكن أضلعي، فقد خُسفت الأرض من تحت قدميّ، وارتعدت أطرافي واصطكّت أسناني، وكدتُ أهرع إلى باب المنزل فأهيم على وجهي في الشوارع صارخة مستنجدة!

أذكر أن أباك لم يأتِ بحركة وبقي واجما كتمثال، بينما أنا في عويل ونحيب يُمزّق القلوب داخل الصدور، ويُفيض الدموع من المُقَل! فلمّا تُبت إلى رشدي وجدته ما يزال على حاله لم يتحرّك، ولم يبدِ عطفا ولا سخطا، فما كان مني إلا أن ارتميتُ على قدميه أقبلهما وأمرّغ وجهي فيهما طلبا للرحمة من جحيم الضرّة!

وبعد أن ردّني إلى مجلسي خاطبني قائلا:

_ اسمعي يا امرأة، إنك تُنكرين عليّ حقا متّعني الله به، فليّ أن أتزوج ما طاب لي مثنى وثلاث ورباع حلالا طيبا على سنة الله ورسوله. فقد أزمعتُ أمري وصليّتُ الاستخارة وتوجّهتُ إليك مُخبرا ومُنبئا، لا طالبا لإذنك ورضاك! فاستغفري ربّك، ولا تعترضي على مشيئته وحكمه!

وتركني ومضى وقد بلغ مني الجزع مبلغا، فأطلقتُ صرخةً كأنها تخرج من عمق الجحيم! فخارت قواي، ووهنت قدماي، ومادت بي الأرض، واختلطت عليّ الأصوات وفقدتُ الوعي وسقطتُ أرضا جريحة الروح والجسد!

فلمّا لبسني الإدراك وجدتني وقد وُضعت على فراشي، يدثرني غطائي، وتُمسّد شعري يد والدتي جدّتك صفية رحمها الله، بينما يقف والدي الحاج محمد رحمه الله عند الباب حزينا مُشفقا، تارة، حانقا مُغتاضا تارة أخرى!

ولولا تدخل جدّك رحمه الله، وإصراره على تعهّد والدك ألا يتزوج عليّ أبدا، لذقتُ علقم الخيانة المشروعة، كما تجرّعتها كثيرات غيري، فمنهن من صبرت واحتسبت، ومنهن من جزعت، وقد وصل الأمر بأخريات إلى الجنون!

غير أن أباك لم يغفر لي ذلك قط، وظل حاقدا حانقا بِغيضٍ لم تمحه الأيام، ولم تُنسه الخطوب! ويشهد الله أني اجتهدتُ في إرضائه وخدمته ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا، غير أنه لم

يغفر ولم ينس، واعتبر أنه سُلب حقا من حقوقه، وأن رجولته أهينت وانتهكت!

وقفت سلمى مُشفقة، أتلوم أمّها وتعتِبُ عليها لأنها ثارت لكرامة الأنوثة ولم تثر لكرامة الأمومة؟! أم تُعانقها مُواسية على جراحٍ لن تشعر بوطئها إلا أنثى! أنثى تُرغم بقوّة العُرف والدين والقانون أن تتقبّل خيانة زوجها على مرأى ومسمع منها، ويتمزّق كبدها إربا دون أن يكون لها الحق في الاحتجاج أو الاعتراض!

***

معظم الناس يفضلون الموت على التفكير.. وفي الحقيقة فإن هذا يفعلونه!

برتراند راسل

لطالما كانت سعيدة الحضن الحنون لبانتها الثلاث، لم تُقصّر يوما في رعايتهن وغمرهن بكل ما تستطيع من حب وحنان، لعلّها كانت تبحث في أحضان الأمومة عن الحب الذي افتقدته في زوجها الهاشمي.

على امتداد السنين تعلّم الهاشمي التخلّي عن بعض عاداته كإرغام الجميع على الاستيقاظ لأداء صلاة الفجر، أو الصيام التطوعي، غير أن مبدأ القِوامة ما كان ليَنمحي أو يزول!

سلوى تُقدّر لأمها السنين الطويلة التي بذلتها من أجلهن، وكل الإهانة والضرب الذي تحملته من أبيهن! لذلك قرّرت أن تُحاول جعل أمها تُفصح عن مكنونات صدرها وتُبدي وجهة نظرها.

توجهت سلوى إلى المطبخ، حيث تقبع سعيدة في ركنها الأثير، تُدحرِج حبات المسبحة بين أصابعها دون كلل أم ملل. جلست إلى جانبها فأشرق وجه سعيدة بابتسامة لطالما كانت نِعم البلسم لسلوى وأُختيها فِداء وجُهينة. وغاب كل الكلام الذي حضّرته سلوى من أجل محاورة أمها التي أخذتها في حضنها كأنها طفلة لم تكبر قط.

كانت سلوى في حاجة إلى هذا العناق، شعرت أنها تتخفف من أثقال جثمت طويلا على صدرها، وأنها في تواصل روحي قوي مع أمها التي شاركتها رحلة الظلم الذكوري. فهمست لها:

- احصلي على الطلاق يا أمي!

اهتز جسد سعيدة بقوة كأنها أصيبت بصعق كهربائي، وردّت في احتجاج:

- هل جُننت يا سلوى؟؟ ولِم أفعل ذلك!

شعرت سلوى أن بركان الغيض اتقد داخلها من جديد، فسألت أمها وهي تحاول بكل قوّة أن تخفي مشاعرها:

- هل ترين أنك تعيشين حياة عادية!طبيعية كما يُفترض لها أن تكون؟

ردّت سعيدة في يقين:

- بل لا أشك في ذلك؟!

لم تتمالك سلوى نفسها هذه المرّة قائلة:

- ماذا عن الضرب؟ ماذا عن الإهانة؟ ماذا عن التجبّر يا أمي؟

ردّت سعيدة بهدوء:

- لا يُمكنني إنكار قسوته يا ابنتي، لكنه زوجي، وأنا مُلزمة بطاعته. فقد علمونا أن المرأة لا تؤدي حق ربّها حتى تؤدي حقّ زوجها، وأن الرسول لو كان آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمر المرأة أن تسجد لزوجها! والله أمرنا بإطاعة الرسول وأولي الأمر منا، وأنا يا ابنتي إن كنتُ أصبر على الأذية فليس إلا ابتغاء لوجه الله، وأجره العظيم.

ردّت سلوى بألم:

- عن أيّ أجر تتحدثين يا أمي؟؟ عن الجلوس في الجنة ومُراقبة العاهرات الميتافيزيقيات، حورَ العين، وشفافات القدمين وهنّ يتناوبن على مُضاجعة زوجك؟ أم أنك لا تُمانعين في ذلك أيضا؟!

بالله عليك يا والدتي، ألا ترين الظُلم الذي يقع عليك من أبي ومن المصدر الذي يستقي منه قانونه ودستوره، إنه الدين الذكوري الذي ابتكره الرجل! ألا يظهر لك جليا أن دين صُمّم برؤية ذكورية محضة، ليس للمرأة نصيب فيه إلا باعتبارها متاعا وخادمة للرجل؟!

يتشدقون بشعار «الإسلام كرّم المرأة» عن أي تكريم يتحدثون؟ ما الإضافة التي قدّمها الإسلام لحقوق المرأة؟ بماذا كرّمها وكيف؟!

لقد كانت المرأة ياأمي في المناطق المُجاورة للجزيرة العربية ذات شأن وهيبة، فكانت زنوبيا في سوريا، وديهيا ملكة الأمازيغ وغيرهما من نساء امتلكن السلطة والمَنعة.

لقد كانت الكلمة الفصل لقوّة المركز الاجتماعي والمادي في تحديد مكانة الفرد سواء كان أنثى أو ذكرا، فعرفت المرأة الحرية ورفعة الشأن، مُحترمة ومسموعة الكلمة، ولا أدلّ على ذلك من خديجة زوجة الرسول المرأة القوية الغنية التي لم يتجرأ على الزواج عليها أبدا!

ما كنت لتعرفي كتاب الأمالي للقالي، ولا ما أورده من ذكر للكاهنة الزبراء وما أثرعنها من قولٍ مسجوع : «واللوح الخافق والليل

الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق. إن شجر الوادي ليأدوا خَتْلا، ويحرق أنيابًا عُصلا، وإن صخر الطود لينذر ثُكلا، لا تجدون معه معلا.» نعم هو سجع كُهان، من إبداع امرأة، ليست أقل شأنا، ولا أعجز عقلا من تأتي بما أتى به الرجال!

نعم حرّم الدين وأد الموت، وأحلّ وأد الحياة! جربي أن تبحثي عن مفهوم حقوق المرأة في الإسلام، لن تجدي إلا ما يصبّ في نهر الزواج والطلاق وطاعة الزوج وخدمته، والتأكيد على الإعراض عن كل ما يشغل وقت المرأة أو فكرها عن أداء مهمتها! فأين حقّها باعتبارها إنسانا؟ وأين ما ميّزها الإسلام به؟ أين التكريم؟؟؟

لقد كانت فكرة القوامة سُما سرى في جسد الأمّة، فكرة عُنصرية تُنادي بالتمييز حسب الجنس! فالرجل عندهم متفوق لذاته ومُفضل بقرار إلهي لا مجال لمناقشته! أما المرأة فهي أقلّ منه شأنا لأنها خُلقت من ضلعه، ومن أجله! كيف تُقنع رجلا بالتخلي عن فكر يُدغدغ غريزيته، ويُعلي من شأنه بدون وجه حق؟!

عودي يا والدتي إلى مصادر التشريع وكُتب التفاسير؛ ابن كثير في كتابه تفسير القرآن العظيم، والطبري في كتابه جامع البيان في تفسير آي القرآن، والرازي في كتابه التفسير الكبير... كل هؤلاء أجمعوا على القول بأن الرجل هو القيّم على المرأة أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومُؤدبها إذا اعوجّت! وأن الرجل فضّله الله على المرأة، بدليل تخصيص الرجال بالنبوّة، نعم! فللرجال على النساء درجة!

فبأي وجه حق؟؟ وما ذنب الأنثى في كونها أنثى؟؟ وحتى وإن تقبّلتِ كل هذا يا أمي فكيف تتقبلين أن يُسفهك، ويعتبرك ناقصة عقل ودين، ويجعل شهادتك بنصف شهادة الرجل، وغير صالحة لتولّي أمرٍ أو قيادة قوم!

لا أخفيك يا أمي أني بعدما اطلعتُ على كل هذا فهمتُ سر النظرة الدونية المترسخة في عقل الرجل اتجاه المرأة! كيف عساه يُفلت من أدلجة مستمرّة ممتدّة، تعزف على أوتاره الحساسة، وتُمتّعهُ بحقّ التعدّد في الزوجات، والوصاية الكاملة، بل وتسمح له بالتأديب والضرب أيضا! أين العدل في أن يُمنح الرجل الناشز عن زوجته ترفا لم تُمنحه الزوجة الناشز التي وضع الدين من أجلها عقابا تدرجيا، يبدأ نفسيا وينتهي جسديا بالضرب!

لقد تعلّم الرجل أن يتقمّص دور السيد، وقبِلتْ المرأة أن تضطلع بدور الخادم المطيع! زوجةٌ تُختصر كل حياتها في رضا الزوج؛ كيف لهذا الظلم أن يكون كلام الله والقانون الذي يرتضيه لخلقه؟

أين العدالة في قانون يسمح للرجل بالزواج على زوجته كأنها ليست بشرا من لحم ودم ومشاعر؟ دون أن يُعطي لها نفس الحق! لمَ لمْ يُحرّم التعدد تحريما قاطعا كما حرم الزنا والخمر؟ لمَ على المرأة أن تحترق بنيران الخذلان والاحتقار!

فقط تأملي إنصاف التشريعات الدينية للمرأة!! انظري كيف يختص الرجل بالأفضلية وكأننا بالتشريعات لا تهتم إلا بإرضائه وحده، ولا تنطلق إلا من وجهة نظره!؟

كان جسد سعيدة يهتز يمينا ويسارا تكذيبا وإنكارا! فإذا أتت سلوى بآية قرآنية لم تتردّد سعيدة بإلقاء جوابها الجاهز: «هذا ليس التفسير الصحيح للآية» وإذا أشارت سلوى إلى الواقع والشرائع الجائرة، ردّت سعيدة باتهام سلوى بأنها لا تفهم تعاليم الاسلام! وعندما تلجأ سلوى إلى الإحالة على شيخ معروف، لا تجد من سعيدة إلا إصرارا على أنّه لا يُمثّل الاسلام! فإذا انصرفت سلوى من الشيخ إلى الحديث النبوي كحُجة سلطة لا يُمكن ردّها، اتهمته سعيدة بالضعف وعدم الصحّة!

كان حوارا عقيما، ودائرة مفرغة،وجهدا لم يثمر في جعل سعيدة ترى النور، أن تدرك أنها تقبل على نفسها وبنات جلدتها الظلم والجور!

***

لا تَسِرْ أمامي فقد لا أتبعُك، ولا تسرْ خلفي فقد لا أقودك،
بل سِرْ بجانبي و كُن صديقي.

ألبيركامو

غياب سلوى عن التواصل مع طارق جعلته ينتبه للمساحة التي استطاعت أن تشغلها في عقله، وموقع الصداقة لم يعد يُناسب المشاعر التي تراوده اتجاهها! إنه مُعجب بكل نغمة تلتقطها أذناه من صوتها اللذيذ، لقد صارعلى صوتها مُدمنا وغيابها هذا جعله يلجأ للمحادثات الصوتية السابقة بينهما، فكان يقضي وقتا طويلا في الاستماع إلى نقاشاتهما الفكرية والفلسفية، يتأمل ردودها ويُحلل طريقة تفكيرها! لقد وجد ضالته في فتاة تعشق إِعمال العقل، وتشغيل الفِكر، بذل الهوس المرضي بهاجس الزواج!

كانت تُحبّ لعبة القراءة المشتركة؛ حيث يتفقان على قراءة نفس الكتاب ثم الاستمتاع بمناقشته! وفي أحيان كثيرة، كان الخيال يشطح بهما لعالم اليوتوبيا والأحلام الوردية!

قد لا يتفهم كثيرون شخصية سلوى المُركّبة، تبدو صارمة حدّ القسوة! غير أنها تُخفي في عينيها الآسرتين طيبة وحنانا! كان يعشق تفاصيلها الصغيرة المُميّزة التي لا ينتبه لها إلا عاشق! وفي حضرتها يشعر بجمال الحياة!

قبل اختفائها الأخير، كان قد اتفقا على قراءة كتاب في مجال الأنثروبولوجيا، وكان مُتحمسا لمناقشة الكتاب معها، طلبا

للمتعة والفائدة، فهو يستمتع بمُشاكستها وإذكاء شعلة الفكر والمعرفة برفقتها.

هذا الصباح، أعدّ قهوته السوداء وهيّأ لنفسه متكأ مريحا ليجالس فيه كتابه،غير أن مُتعة القراءة، لم تتمكن من إسكات صوت يرنُّ باسم سلوى في رأسه،ومن حين لآخر كان يتفقد هاتفه لعلّه يجد بُشرى تُسعد قلبه، غير أنها استمرّت في لعبة الاختفاء!

استسلم طارق لسحابة الحزن وهو يُجالس وحدته المعهودة، فإذا بطرق خفيف يتناهى إلى سمعه! خفّض صوت الموسيقى وأصاخ السمع لبُرهة، فما لبثت الطرقات الخفيفات أن تكرّرت على بابه مرّة أخرى!

توجه نحو باب غرفته، يحذوه الفضول لشأن هذا الطارق الذي يعرف شخصه ويجهل غرضه!

انفرج الباب عن وجه السيد مصطفى الباسم، كان يقف في تطلع لرد فعل ابنه طارق وهو يراه أخيرا يقف عند باب غرفته، بعد أن قضى وقتا طويلا لا يبرح محرابه الأثير إلا لأمر جلل!

بادر طارق قائلا:

_ تفضّل يا أبي، مرحبا بك في عالمي الصغير.

قهقه السيد مصطفى وانفرجت أساريره، ثم رد قائلا:

_ قد أفكر في هذه المغامرة، في حال فكّرتَ أنت في ترتيب عالمك الصغير هذا، وتهذيب أركانه من هذه الفوضى!

لكن والحال كما نرى جميعا دعني أقدم لك دعوة خاصة لفنجان قهوة، ومُجالسة صديق.

تساءل طارق في استغراب:

- صديق!

غير أن السيد مصطفى تجاهل تساؤله مُشيرا إلى ساعة يده قائلا:
أراك عند الخامسة!

وعندما دقت الساعة الخامسة، كان طارق وأبوه يقفان أمام سيارته الكلاسيكية السوداء. كانت عينا السيد مصطفى تتفرسان سيارته الأثيرة، كأنه يطمئن عليها بعد غيابه الطويل، كان راضيا على العناية والنظافة التي اضطلع طارق بمسؤوليتها طوال هذه المدة.

وما إن استقر الرجلان على مقعديهما حتى أخذتهما نفحة مشتركة من عالم الذكرى، حيث كانت السيارة تجمع أفراد الأسرة الأربعة في جولات وأسفار عديدة. ولثوانٍ غرق كل منهما في صور وأصوات من ذلك الماضي البعيد، حيث كان عليّ يضطلع بمهمة إلقاء النكت، بينما تتعالى ضحكات مجلجلة للسيدة نجية، التي كانت تُرغم السيد مصطفى على إلقاء عباءة الصرامة، ومشاركة أسرته لحظات جميلة، لم يبق منها اليوم إلا السراب!

كادت دمعة تنساب من عيني طارق الذي غشيته مرارة الذكرى، إلى أن أيقظه زئير محرك السيارة المتعطّشة لطيّ المسافات، وشق الطرقات.

وصل الرجلان إلى المقهى المقصود، وقبل أن يترجلا من السيارة، تساءل طارق:

- هل أعرف هذا الصديق يا والدي؟

أجاب السيد مصطفى وهو يُربّت على كتفه:

- ما أظنك عرفته بعد!

ابتسم طارق قائلا:

- سأغتنم الفرصة إذن!

جلس الرجلان إلى الطاولة، فإذا بالسيد مصطفى يفتح بذلته ويستخرج كتابا متوسط الحجم من الجيب الداخلي. وضعه على الطاولة ودفع به نحو طارق قائلا:

- هذا هو الصديق؛ إنه فرج فودة!

ارتطمت عينا طارق بعنوان الكتاب؛ «الحقيقة الغائبة» نظر إلى أبيه قائلا:

- يبدو أن صديقك هذا يستلزم جهدا وتركيزا يا والدي، فدعنا هذا اليوم من جدّ الكلام إلى هزله، فلنستمتع بمشاهدة مباراة كرة القدم، أو لعب الورق، فإن هذا اليوم بالنسبة لي فتحٌ عظيم!

أما صديقنا فأعدك أن تكون لنا معه جلسة خاصة، بعد أن اطلع عليه بهدوء وتركيز، ونضرب لمناقشته موعدا قريبا.

لم يكن من السيد مصطفى إلا القبول والتسليم، وهو يشعر أن مبادرته هذه قد فتحت أبواب التواصل مع ابنه طارق من جديد.

***

الجهل وطن والوعي منفى

إميل سيوران

اهتزّ جسد طارق، مع اهتزاز الهاتف، تمنى أن يهلّ اسم سلوى على شاشته، لعلّ رسالتها تطفئ نار القلق التي تأكل روحه.

هذه المرّة تحقّقت أمنيته، وظهر اسمها، ففتح الرسالة على عجل:

عزيزي طارق

أعرف أنني لم أفعل صوابا بهذا الانقطاع البشع، فما كنت لأقبل منك غيابا دون مُبرّر أو وداع! وتكفيرا عن ذنبي دعني أفتح لك باب غرفة أسراري، وأتقاسم معك تفاصيل حياةٍ لا تدري بشأنها عني!

عرفتَني في غرفة المحادثة متمرّدة قويّة الحُجّة، ومُقاتلة شرسة، غير أن حياتي الفعلية على غير ما يتوهم السامعون.

عشتُ وأختيّ فِداء وجُهينة تحت سطوة أبٍ شديد البأس، لم أعرف إلا مؤخرا أنه كان ينتقم منا حسرة على فقد الابن الذكر! لم يتقبل أن يضطلع بتربية ثلاث إناث، مصير كل واحدة منهن المحتوم هو بيت زوجها، بل أراد الولد السّند، الذي يحفظ نسله، ويُبقي على اسمه موجودا على امتداد الأجيال.

منذ الطفولة راودني سؤال العدالة، كنت دائما أسأل أمي عن سبب تفضيل الذكور، واختصاصهم بامتيازات عدّة، فتُجيبني أنها حكمة الله!

ومع امتداد السنين، تزايدت الأسئلة التي كانت تُشقي العقل والجسد، أسئلة كانت تُسبّب ليالٍ بيضاء، وكثرة الانطواء! فأين المفر في مجتمع التلقين ومُصادرة الإرادة!؟ فقد علّمونا أن التفكير في الدّين مكروه، وأن الإيمان يعني التصديق القلبي، والاستسلام الروحي، فأعطيناهم قلوبنا لكنهم خذلوها، وبالظلم جلدوها.

نظرتُ لحال المرأة فوجده مُزريا مُهينا حدّ الألم، فقد رموها بنقص العقل والسفاهة، وأمروها بالسمع والطاعة! حتى وإن انتُهكت إنسانيتها بالوِصاية والضرب، وحتى برؤية زوجها يتزوج عليها بقوة الشرع والقانون، لم يسمحوا لها بالاحتجاج؛ فقالوا هذا أمر الله فاحتسبي وكوني من الصابرين!

الآن أعذر أختي فِداء لأنها حلقت شعرها وتنكّرت لهوياها، فهي تُريد النّجاة من مجتمع لا يعرف اتجاه المرأة إلا لغة الإهانة والإدانة، يُحملها الوِزر منذ أسطورة الخلق، ويُحملها الذنب حتى وهي مخضبة بدماء العدوان الذكوري!

وفي لياليّ الطويلة رفعتُ يدي وصرخت أينك يا الله، انظر ماذا فعل هؤلاء باسمك يا الله! لقد نشروا الظلم، قطعوا الرؤوس ونكحوا الصغيرات والكبيرات، ونهبوا الأموال باسمك يا الله! ونجحوا في امتطاء العقول، وتسلم الزمام جيلا بعد جيل!

أتدري يا طارق! لقد وجدتُ أن الإنسان النّاجي من مخدّر الدين يمرّ بمراحل يسترد فيها زمام عقله، ويستوعب أن ما كان يؤمن به حتى النخاع ضربٌ من التفسير البشري المحدود بزمانه

ومكانه، والذي لم يعد قادرا على مُحاجَجةِ العلم ومُسايرة الواقع! ففي المرحلة الأولى وهي مرحلة أميّة الفكر، يعيش الشخص ثقة عمياء بامتلاك الحقيقة المطلقة، وفخرا عظيما بشرف الانتماء للفئة الناجية من بين كل العالمين!

وفي المرحلة الثانية وهي مرحلة صفعة الفكر،يجد الإنسان نفسه وجها لوجه أمام معضلة أو مُعضلات تجعل عقله يستيقظ من سبات الغفلة، فينفض عن نفسه غبارا تراكم لعمرٍ كامل، ويشرع بالتفكير والمقارنة والتحليل، فيعيش مرارة الصدمة مما تُخفيه عباءة القداسة من قوانين جائرة، وفِكرعدائي تسلّطي! فيُصارع الشعور بالذنب الذي حُقن به منذ الطفولة، شعور لطالما نخَر روحه بالتأنيب إن هو فقط تجرأ على إنكارتلك المُعضلة، أوذاك الحكم الجائر! فلا يجد إلا الاستسلام إلى أن يعرف مرحلة زلزال الفكر!

في هذه المرحلة يلجأ إلى فيصل العلم،فينفتح على كتب كثيرة ومقالات أكاديمية، وحوارات ومناظرات، فيدرك أنه وأهله وعشيرته بل والملايين من الناس يعيشون في وهم كبير! محكومون من أموات قد خلت السنين على أجسادهم، لكنهم ما زالوا يمتلكون زمام السلطة بِحُكمهم! وضعوا للناس قوانين لا يملكون الحِياد عنها لأنهم نسبوها لإله، عصيانهُ يعني الاحتراق الأبدي في الجحيم!

ووضعوا تشريعاتٍ من يتأملها يوقن أن واضعها رجل، فهو بالتأكيد ليس امرأة خبرت كينونة الأنوثة فأنصفتها! بل هو

رجل محدود المعرفة والحكمة، أخطأ في مواضع عديدة، فجَارَ وظلَم، وسبّ ولعن، وتوعد وهدد، وما هذه بأخلاق إله!

أتدري يا طارق أن اطلاعي على كتاب سامي الديب في أخطار القرآن جعلني مُنبهرة من شدّة العمى القدسي! لكنّه شجّعني على الاستمرار في البحث والتنقيب فوجدت مؤلفاتٍ ومقالاتٍ في دحض ما يُسمى إعجازا قرآنيا فعجبتُ من قوّة هذا الاستعمار الفكري والروحي الذي بسط سيطرته عليّ وعلى الملايين من البشر على امتداد السنين! ولأوّل مرّة وجدتني أتساءل كيف كنت أتقبل كل هذا وأستسيغه، بل اعتبره مقدسا؟!

وهكذا تحصل الصّحوة يا طارق، وتستيقظ من وهم الخُرافة مُدركا أنها ايديولوجية خطيرة، ذات أهداف سياسية منذ نشأتها إلى يوم الناس هذا!

كل هذا قادني للبحث عن شخصية رسول الإسلام، فوجدت من الأحاديث ما هو مُخجل يندى له الحبين، ومنه ما هو مُخيف مرعب، لا ينمّ عن رحمة أو شفقة! ومنها ما يُجانب العقل والمنطق، فانهارت صورة الرسول الشخص النوراني المقدس، لتقوم محلها صورة الحقيقة، وهي أن الرسول إنسان تظافرت الظروف لتهيئ له وهم النبوة، التي استساغها حد التصديق! فبدأ بخطاب ليّن عذب في الدعوة المكية، استقطب به الفقراء والمستضعفين، ممن وجدوا سلوى عن شقائهم الدنيوي في وعود حياة الآخرة المؤجلة! ثم ما فتئ إلى أن انقلب خطابا شديد الوعيد، وقاطعِ الأحكام في الدعوة المدنية، فلكلّ مقام مقال!

عجبت من أن يكون النكاح من أولويات هذا الرسول حتى داخل الخطاب المقدس، فالآيات التي تهتم بالشؤون الخاصة للنبي تملأ القرآن! فتساءلت مُستغربة كيف لإله الكون الشاسع، أن يلتفت لمثل هذه السفاسف! وما الإضافة التي يُقدمها وجودها في القرآن للبشرية؟!

بل هي نكال على النص المقدس وعلى الدين، وشرٌّ عليه: ما الذي يستفيد المسلم من آية تأمر الرسول بالزواج من زوجة دعيّه وعدم التحرّج من ذلك؟ وكيف يُبرر الدين زواج رسول من الله بطفلة في السادسة، ووطئها وهي في التاسعة، وهو الذي جاء ليُتمّم مكارم الأخلاق؟!

كيف يُبرّر جهاد الطلب والسبي والأسر وملك اليمين والغنائم؟! كيف يُبرّر استمرار العبودية وترسيخها؟

لكن الرجل يا طارق لن يتساءل، ولن يرغب حتى في التفكير في معضلات لا تمسّه شخصيا بسوء، ما دام في منأى عن الأذى، ما دام قد مُنح بموجب هذا الدين الأفضلية والسلطة!

***

قُصر النظر هو الذي قاد بالإنسانية إلى قتل حكمائها.

سقراط

قرأ طارق رسالة سلوى بتمعن وتركيز، وما إن أتى على آخرها حتى أخذ صفحة جديدة وكتب:

العزيزة سلوى

لا يحتاج الإنسان أكثر من إنسانيته ليدرك مواطن الظلم والجور في هذا الدستور الديني، وليس الرجل في حاجة إلى أن يتحول إلى أنثى حتى يتذوق علقم الأنوثة في مجتمع ذكوري بمباركة العُرف والدين!

ولست أنكر عليك احتجاجك وغضبك، بل هو حق مشروع وحاجة إنسانية من أجل رفع الجور والظلم عن المرأة.

أثناء غيابك استمعت لنقاشات طويلة، ومناظرات أطول في هذا الشأن تحديدا، وبين رافع لسيف التحدّي باسم قداسة الأحكام الدينية، وآخر مُتساهل يستنجد بالتأويل والتفسير الذي يصل حدّ السخف واللامنطق، لاحظتُ ظهور فئة أخرى تتبرأ من الحديث والسنة وتنكره، وتتشبث بأعتاب النص القرآني باعتباره الفيصل في كل الأمور!

أحالني صديق على كتاب بعنوان: صحيح البخاري؛ نهاية الأسطورة» لرشيد أيلال الذي عرف طريقه للقارئ رغم قرار

المنع والتضييق على صاحبه، والأذى اللفظي الذي وصل إلى درجة التهديد بسفك دمه!

لكني رغم كل هذا تفاءلتُ غاية التفاؤل بهذا الكتاب الذي اعتبرته ناقوسا ضخما يدقّ في آذان النائمين، وخطوة مهمة نحو مُساءلة التراث الديني، وتعرية الوجه البشع المختبئ وراء نقاب القداسة!

وقد صادف كل هذا حضور كتاب آخر بين يديّ، إنه « الحقيقة الغائبة» لفرج فودة الذي دفع حياته ثمنا لفكره وآرائه المناهضة لإيديولوجية دولة الخلافة، فأهرق دمه، وانضم لقائمة الكثير من المفكرين الذين دفعوا حياتهم ثمنا لفكرهم، بل منهم من عُذب وتمّ التنكيل به، ومنهم من ادعى الجنون دفعا للأذى وطلبا للنجاة!

عودي إلى المراجع؛ ككتاب المنقذ من الضلال والبداية والنهاية وحتى إغاثة اللهفان، وسير الأعلام، وانظري كيف أدانوا هؤلاء المفكرين وأذاقوهم من ألوان الأذية والتعذيب، فيُذكر أن ابن المقفع اتُهِم بالزندقة وقُتل بعدها على يد معاوية بن أبي سفيان، حيث قام بصلبه وتقطيع لحمه قطعةً قطعة وقام بشيّها في النار أمام ناظريه حتى مات! أما الفارابي فقد عُدّ من أكبر الفلاسفة وأشدهم إلحاداً وإعراضاً وزندقة! كما اعتبرّ ابن سينا إمام الملاحدة ضالا مُضلا، وكذلك أبو العلاء المعري والكندي وابن النديم وابن طفيل وابن الهيثم وابن رشد وغيرهم كثير!

فلِماذا حرص المسلمون على إخراس أصوات العلماء والمفكرين؟! ولماذا بادروا إلى قتلهم وتعذيبهم، وانتهاك حريتهم، وحرق كتبهم وآثارهم؟ لمَ لم يُقارعوا الحجّة بالحُجّة، وينتصروا بالعقل والمنطق بذل سفك الدماء وطحن العظام!

هذا ديدنُ الكهنوت الذي طالما ألجم الأفواه، وقطع دابر كلّ متطلّع لإعمال العقل، واستخدام المنطق، لقد كانوا أهل إرهاب ولايزالون!

***

إذا استطعت أن تُحسن حياة إنسان واحد أو تُخفف ألما
واحداً أو تُرشد طائراً إلى عشه، ما ذهب عمرك سُدى.

إيميلي ديكنسون

لم يكن أصدقاء طارق يُفضلون استعمال مصطلح «التنوير» وعادة ما كانت محاولاتهم لإيجاد اسم بديل تبوء بالفشل، لتَعارض الرؤى والآراء. غير أن طارق كان يحلو له أنه يستعمل مصطلح «الإيقاظ» و«الصحوة» فهو على يقين بأن هؤلاء الناس مُغيّبون باستراتيجية قويّة مُمْتدة، تتكئ على الحاجة الإنسانية المُلحّة لإيجاد معنى للوجود، والراحة المُترتبة عن الأمل في حياة بعد الموت، وفي الفوز بالجنّة والنعيم!

كان طارق وأصدقائه شبابا يحملون همّ الأجيال الصاعدة التي تفشّى فيها داء التفاهة، وفقدت الرغبة في الكدّ والعمل، فتفكيرهم أبعد ما يكون عن سبيل الاجتهاد في البحث عن الحقيقة!

لكن أصدقاء الصّحوة كانوا عازمينعلى نشر الوعي، ورفع صوت الحقيقة بما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فكانوا يقومون ببث مناظرات على النت، ومقاطع فيديو تثير المعضلات المختلفة وتُناقشها! كانوا فخورين بما يفعلون، رغم وعيهم بأن أيقاظ هذه الأمة المُغيّبة مطمحٌ بعيد المنال!

ما يُميز طارق عن صديقه حسن، أنه كان سلسا ليّنا، فلم يكن يلوم المتدّين على تعصّبه، ولا يُحمّله وزر دوغمائيته. هذا الصباح قام بنشر تغريدة على حسابه على تويتر يقول فيها:

«لا تغضبوا من المسلم! ولا تلوموه! لقد سُمّم عقله منذ الطفولة، وأُحِيط به من المجتمع والإعلام! وعندما طرقَ السؤال الوجودي أبواب عقله، كان الدين قد بادر بتقديم الإجابات، بل حتى التشريعات ونهج الحياة!

فأيها المُستيقظ من غيبوبة الخرافة لا تَلُم المسلم، واعتب عليه برفق، فدماغه ما زال سجين وهمٍ راسخ في الدم والروح، وهْمِ امتلاك الحقيقة المطلقة! نعم إنه يحتاج رياضة لعقله لكي يستوعب ماهية التفكير خارج الصندوق! لكن صدّقوني، ما إن يحصل الأمر ويكتشف حقيقة الخرافة، حتى يعيش لحظة انبعاث وولادة جديدة!»

غير أن صديقه حسن لم يكن يتفق معه في رؤيته، واعتبر أنه يُداهن المتدينين، ويطلب رضاهم، لذلك عقّب عليه بتعليق ساخر يقول:

«من منكم يا سادة يُترجم لي هذه الآية إلى اللغة الإنجليزية «تبّت يدا أبي لهب وتبّ»؟

أمر طريف أليس كذلك؟ لكن تأملا بسيطا يُظهر لك أننا أمام كلام بشري، صاحبه يغضب ويسبّ ويحقد ويتوعّد بالانتقام!

كيف يتجرؤون أن ينسبوا ذلك الكلام إلى الله؟! كيف للإله العظيم الذي خلق هذا الكون الشاسع بمجراته الممتدة، أن ينزل إلى هذا المستوى في الخطاب، ويُضمنه لكتابه المقدس الذي يُفترض أن يكون آخر كتاب يُرسل للناس، ودستورهم الذي يسيرون على خطاه!

لكن الجريمة التي نقترفها دون وعي هي تلقين هذا الكلام للأطفال منذ نعومة أظافرهم؛ خطابُ كراهية، يدعوا للإقصاء والتمييز على أساس المُعتقد! أ هذه المبادئ التي سنربي عليها الأجيال الناشئة؟!

لكن حسن لم يكتفِ بتعليقه ذلك، وقام بكتابة منشور طويل يقول فيه:

لقد علّمونا أن الرسول أتى بالحب والاحترام والمعجزات، غير أن كتابه مليء بانتهاك العدالة والأخلاق! فكيف نتقبل أن يتّصف الله بسلوكيات بشرية كالغضب والحقد والرغبة في الانتقام! فنجده يتوعّد ويردّ الشتيمة بالشتيمة كما فعل في حادثة العاص ابن وائل الذي سبّ الرسول ووصفه بالأبتر، فجاءت آية الرد الإلهي وقال «إن شانئك هو الأبتر»!

والآخر، توعّده أن يسمه على الخرطوم، ثم يُصليه سقر التي لا تُبقي ولا تذر عليها تسعة عشر!

وغير ذلك كثير من وصف غير المسلمين بالأنعام، بل هم أظل سبيلا! وهم كالكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث! وهم أيضا كالحمار يحمل أسفارا!

كتاب يُسوّق لفكرة أن الإنسان مُسخ إلى قردة وخنازير، وأن الرسول صعد إلى السماء مُمتطيا حصانا مُجنّحا، ويجدُ من يؤمن بذلك تصديقا ويقينا!

الرسول الذي كان يستطيع التواصل مع الله عن طريق جبريل الذي لا يراه غيره، والذي يهتم بشؤنه وينزل عليه بآيات تُناسب

هواه واحتياجاته! فبعد أن تناهى إلى علم الرسول أن طلحة ابن عُبيد الله، المُبشر بالجنة يرغب في الزواج من عائشة بعد وفاته، نزلت الآية فورا تُحرّم الزواج من زوجات الرسول، وهي آيات لا تُضيف شيئا إلى المسلم ولا يجد منها فائدة، غير أنها تخدم رغبة الرسول وحده! بل إن جبريل جاء الرسول بآيات تُبيح له نكاح كل امرأة تهب نفسها له وهو أمر اختصه به الإله من دون المسلمين، هذا بالإضافة إلى زوجاته وما ملكت يمينه، مما جعل عائشة تحتجّ بقولها: «أرى ربّك يُسارع في هواك»!

لقد مُنح الرسول نفسه تصريحا مفتوحا للنكاح، فكيف لشخص عرف الله، وتواصل معه عن طريق ملاكه جبريل ألا يتعالى عن ذلك، وقد لمس نور الله وتواصل معه! أهكذا يكون أسوةً لغيره من الناس؟ وهل يُفترض أن يقرأ هذه الآيات وأشعر بالخشوع والروحانية والإنسانية!؟

***

ليذهب كل منا في طريقه، أنا نحوك، وأنت نحوي.

جبران خليل جبران

هذا اليوم فتح طارق عينيه قبل رنين المُنبه بثوان معدودات، فرحةٌ لذيذة كانت تُدغدغ مشاعره، وهو مُقبل على اليوم الذي انتظره كثيرا! هذا اليوم سيسافر لمسافة ثلاث مئة كيلومتر ليرى سلوى لأول مرّة على أرض الواقع.

بدأ صباحه بأخذ حمّام بارد، ثم حضّر حقيبة الظهر التي ضمنّها هدية لسلوى، كانت دبا أبض ناعما، وسلسة فضية مع جوهرة متلألئة.

حضّر المال الذي كان قد وفّره من عمله الأخير، وتوجّه لغرفة أبيه ليودّعه.

تفاجأ طارق بالسيد مصطفى يُقدّم له مفتاح سيارته الأثيرة، هو لم يفعل ذلك سابقا، ولا حتى طارق تجرأ على طلبها في يوم من الأيام.

شعر أنه يعيش حُلما، أن الحياة تبتسمُ له أخيرا، وقاد السيارة السوداء الجميلة مُتوجها للقاء العمر.

لم تكن سلوى أقلّ سعادة من طارق، استيقظت مبكرّة لتتبّع رحلته من بدايتها عبر الصور التي يبعثها لها بين الفينة والأخرى.

وحلّت اللحظة السّحرية، ووصل للمكان المُتفق عليه ليجد سلوى مع تلك الابتسامة التي لن ينساها أبدا! وما إن وقع عليها نظره حتى شعر بالرضا، ودفقةٍ من سعادةٍ لم يختبرها من قبل! فلم يملك إلا أن يُخاطب نفسه قائلا:

- يا لسحرها!

أمّا سلوى، فما إن ترجّل طارق من السيارة حتى شعرت بشهقة قوية تجتاح صدرها، وفي تلك اللحظة بالذات أحست أنّ قلبها فُتح وقفز فيه طارق متربّعا على عرشه الذي لم يُوجد إلا له!

وقضيا يوما جميلا، جَبّ ما قبله من السواد، فكل واحد منهما شعر أنه وجد السعادة، وأنه يقف أمام الشخص المنشود!

وعندما حان موعد عودة سلوى إلى المنزل، افترقا على مضض، ودخل طارق إلى غرفته في الفندق الذي كان قد حجزبه مسبقا، نزع ملابسه وألقاها بعيدا وهو يتحرك بطريقة انسيابية راقصة، فقد كان يشعر أنه فوق السحاب! أنار المصباح الخافت الصغير المُتدلي بجانب السرير، وأخذ مذكرته الأثيرة وخطّ جملة تُخلّد مشاعر يومه المميز:

«يا له من يوم أثير، إنه بعث، وغيثٌ روى أراضيّ القاحلة! ما الحياة بدون أنثى؟! ما الحياة بدون حب!؟»

أغلق مذكرته، وتفقد سلوى التي طمأنته على وصولها بخير إلى المنزل، وبعد حديثٍ طويل قرّر الحبيبان أن يستسلما للنوم،

وهما يتطلّعان للقاء جديد في الصباح من أجل تناول الإفطار معا.

وحانت لحظة الوداع الصعبة، وقف كلٌ من طارق وسلوى وقفة الرضيع من ثدي أمه، كلٌ منها يرغب في الاستزادة من حلاوة الرّفقة، وجمال الحضور، لكن لا بد مما ليس منه بد، وعلى طارق أن ينطلق في سبيله عاجلا أم آجلا.

تلامس الكفان بعناق ودّ لو يضمّ الجسد بأكمله، وتحدّثت العينان بكل ما عجز عنه اللسان، وتداعى الوجود حول العاشقين فما أبصرا إلا سحابة الفراق تتوعدهما مُرعِدة مُبرقة أنْ آن وقت الفراق! وقبل أن يركب طارق سيارته، امتدّت يد سلوى لحقيبتها واستخرجت هدية مغلفة بورق اختلطت فيه ألوان الحياة، وأصرّت على أن يفتح هديته أمامها قبل الرحيل.

كانت الهدية كتابا بعنوان «العاقل: تاريخ مختصر للجنس البشري للكاتب يوفال نوح هراري». أخبرته سلوى بحماس أنه كتاب بيعت منه سبعة وعشرون مليون نسخة! وقد أشاد به الكثيرون من ضمنهم قادة دول، ورواد أعمال عالمين رائدين، وكُتّاب وفنانون! إنه يُقدّم رؤية عن ماهية العالم وسبب كونه على ما هو عليه، بل ويستشرف المستقبل في ظل التطور العلمي والتكنولوجي!

ابتهج طارق بهديته، وودّع سلوى وابتعد بسيارته وهو يشعر أن داخل صدره يدان قاسيتان تعصران قلبه! سمح لخياله أن

يتوهم أنها تُرافقه في السيارة في رحلة العودة إلى بيته، تخيل ضحكاتها تتعالى، تخيّلها طفلة مشاكسة، لا تلبث أن تنام مُستسلمة لتعب الطريق الطويل، بينما يتولى هو القيادة كأنه ملاك حارس، مهمته إيصالها بسلام.

أما سلوى فانفردت بنفسها في غرفة النوم في غفلة من أختها وبدأت تقفز في جنون وتُعانق الدب الأبيض الناعم كطفلة صغيرة.

***

كفـى بـك داء أن تـرى المـوت شـافيا ** وحسـب المنـايا أن يكـن أمـانـيا

المتنبي

تُدرك سلوى أن الحياة ليلٌ ونهار، ظلمةٌ ونور، غير أنّ ظُلمة هذه الليل كانت حالكة السواد، جثمت بثقلها على جميع أفراد الأسرة.

استيقظت جُهينة لتجد نفسها في غرفة باردة شديدة الإضاءة إلى حدّ أن بياض الجدران اخترق عينيها بتوهجهِ المُؤلم. شعرت أن رأسها ثقيل، وجسدها واهن، بل هي أشبه ما تكون بجثة هامدة، بدأت الروح تدبّ فيه للتو!

لاح وجه سعيدة الذي تحكي ملامحه كلّ ما لا تريد جُهينة أن تواجهه، فما دامت قد وجدت نفسها في المستشفى فالأرجح أنهم اكتشفوا حملها!

تمكّنت من ملاحظة وجود أختها سلوى عند الجهة الأخرى باكية مُنهارة، والتي بادرت بإمساك يدها وقالت جملة واحدة:

- أنا معك، فلا تقلقي يا أختي الصغيرة.

أما سعيدة فأمسكت يد ابنتها وجسدها يهتزّ اهتزازا؟

- نشادتك الله أن تخبريني من أب جنينك؟ مع الذي حصل؟؟ كيف ومتي؟؟ أخبريني... فقط أخبريني!

كانت هذه اللحظة شديدة على جُهينة، تمنّت الموت بدل أن تعيش هذا الموقف اللعين الذي يثقل فيه الزمن، ويغور

الجرح ويشتد الألم،فدموع أمها الجارية، وحولقتها المتتالية كانت تجلدها جلدا!

وبحروف تتسلق جدار الحلق باستماتة، أخرجت جُهينة كلمات متلعثمة، كان صوتها واهنا مُنكسرا تماما كقلبها وروحها. حَكَت عن حادثة الاغتصاب الذي تعرّضت له في سطح العمارة، فقد شهدت السماء الزرقاء على صرخاتها المكتومة بيدين غليظتين قاسيتين، وعانقت الجدران جسدها الهارب بنفسه من مخالب المُفترس!

عرفت سلوى أنها في حاجة إلى تدخل قوي وفوري، فاتصلت بعمها الأكبر عبد الله، وأخبرته بما حصل، فقام بالحجز في أول رحلة طيران إلى الديار.

فِداء بقيت خارج المستشفى برفقة أبيها حرصا على سلامته، بعد أن طُرد من المستشفى بسبب تصرفاته الهستيرية التي لم يتوقف عنها حتى بعد أن وصل إلى المنزل! لقد جعل فِداء تركض فزعا منه وتغلق دونها أقرب باب وجدته! لأنه كان في حالة هياج لم تشهد لها مثيلا، قام بتحطيم كل شيء موجود في مجال رؤيته، تطاير الزجاج الممزوج بالدم في كل مكان، وختم ثورته بصرخات قويّة جعلت فِداء ترتجف خوفا وجزعا!

وامتدّ سواد تلك الليلة لوقت بدا دهرا، ومع آخر إمضاء لسعيدة على الوثائق الرسمية، توجهن إلى المنزل في جو جنائزي!

كانت سعيدة والبنات في رعب وتأهب، ترقبا لأي هجوم من طرف الهاشمي! أسنان جُهينة تصطك وجسدها ينهار، وسلوى

وفِداء تسندانها بقوّة بينما تقف سعيدة أمامهن مباشرة في خط النار!

وحلّ الصباح أخيرا، ومعه هلّ العم عبد الله بشوشا سمح الوجه، عانق سلوى وفداء بحرارة، وسلم على سعيدة التي لم تتمالك دموعها لرؤيته، كان ملاكهم الحارس دائما على امتداد السنين وما زال كذلك!

وقبل أن يتوّجه لغرفة أخيه، طلب رؤية جُهينة التي كانت تحتمي بسريرها وغطائها الثقيل. وما إن تناهى صوته المميز إلى سمعها حتى قفزت من سريرها إلى حضنه مباشرة، ودون أن تتمالك نفسها بكت بشدة، وعانقته، الشيء الذي منحها شعاعا من النور من ظلامها الدامس.

بعد ذلك توجّه إلى غرفة الهاشمي وهو يُدرك صعوبة محاورة رجل مُحطّم تحقّقت أسوأ مخاوفه، وها هو ذا في مواجهة مباشرة مع مارد العار!

عندما لمح الهاشمي أخاه عبد الله يقف أمامه، ابتسم، لكنّه لم يرفع رأسه للنظر في وجهه، بدأ يُحرك رأسه ذهابا وجيئة بلا توقف، ثم قال ساخرا:

- وها أنا ذا مرّة أخرى، جريح محطّم، وجئت أنت لتُصلح أحوالي!

غير أن عبد الله تجاهل كلامه قائلا:

- ألا تُرحّب بي، وتقولي لي حمدا لله على سلامتك!

لم يتخلّ الهاشمي عن سُخريته قائلا:

- حمدا لله على سلامتك، وحمدا لله على ندامتنا!

وبهدوء رد عبد الله:

- لم لا نجلس في الشرفة لتبادل أطراف الحديث!

**

تمكّن عبد الله من إقناع أخيه الهاشمي بالخروج من غرفته لتناول الطعام مع الأسرة في غرفة المعيشة، غير أن الهاشمي لم يُوافق أبدا على وجود جُهينة على الطاولة! كان يُردّد أنه يجدر بها أن تكون جثة هامدة الآن، ليغسل ما ألحقت به من عار، لا أن يستضيفها في بيته هي وجنينها القذر!

تحدثّ عبد الله بعد الطعام عن تكفلّه بالإجراءات القانونية، واتفقوا جميعا على المطالبة بسجن المجرم في حق فتاة قاصر في الرابعة عشر من عمرها!

لم يتحمّل الهاشمي حديث أخيه عبد الله عن دروب القانون وردهات المحاكم لاسترجاع حق الفتاة المُغتصبة، فهبّ واقفا في حركة عصبية واتجه نحو باب المنزل.

وبعد مدّة عاد الهاشمي إلى المنزل بقرار جديد ذُهل له الجميع! دخل من الباب مباشرة إلى وسط البهو، وألقى قراره:

- جُهينة ستتزوج من صاحبي عبد الجبار، بعد أن يُسجن ذلك المجرم!

أُلجمت الألسن، وهي تستحضر صورة السيد عبد الجبار الذي يبلغ من العمر خمسة وخمسين عاما!

وبعد سجال بين الهاشمي وأخيه عبد الله الذي جُنّ جنونه وهو يستمع لحُجج أخيه الواهية، لم يتمكن من إقناعه بالعدول عن هذا القرار الأرعن، فالهاشمي كان مُتمسكا به، لا يرى مجالا للتراجع عنه!

كانت سلوى تشعر أنها تدور في دوامة سريعة ستنتهي بغرقها لا محالة! كلّ هذا الزخم من الأصوات العالية والخافتة حولها يخنقها، تمنّت يوما واحدا من السلام والحب، وتمنّت بشدّة لو أن طارق بجوارها في هذه اللحظة، يُساندها ويشدّ من أزرها.

ومع اضطرار العم عبد الله إلى الرجوع إلى بيته بديار المهجر، عاد المنزل لكآبته، فالأيام تمرّ بألم غامر، وبطء قاتل! وإصرار الهاشمي على تزويج جُهينة من صديقته الخمسيني كان شديدا!

**

هذا الصباح افتقدت سلوى شهقات جُهينة التي اعتادت أن تستيقظ يوميا على أصواتها، اقتربت من سريرها في توجّس فلم تجد لها أثرا! تفقد المطبخ والحمام، وحتى غرفة الجلوس والشُرفة، غير أنها لم تجدها نهائيا!

عادت سلوى للغرفة مُستنجدة بفِداء، غير أنها تفاجأت بأنها الأخرى غير موجودة بسريرها العُلوي الذي كان يقع مباشرة فوق سرير سلوى!

فلم تجدا بُدا من طرق باب غرفة نوم والديها،فدق ناقوس الخطر في المنزل، وأطلقت سعيدة صيحاتها مولولة! أما الهاشمي فقفز مباشرة إلى باب المنزل!

أخبرت سلوى طارق بما استجد من أحداث، فهو ملجأها الوحيد، كان يُساندها، ويتفقد أحوالها باستمرار، غير أن ذلك لم يطفئ نار التساؤل عن مكان فداء وجُهينة ومصيرهما! كان يسألها بين الفينة والأخرى عن الأحوال، لا طلبا للجواب، بل بثا لمشاعر الحضور والمساندة.

وحصل ما كان الجميع يخشاه، وجاء نداء السلطة كأنه إعصار خلع القلوب من الصدور. وفي مركز الشرطة تمّ إعلام الوالدين بواقعة العثور على جُثّتيْ فتاتين يقول شهود عيان من الصيادين أنهم رأوهما يلقيان بنفسيهما من الجرف بين الأمواج الصخرية.

وتمّ التعرف عليهما من طرف أحد الصيادين المحليين، قبل نقلهما إلى مستودع الأموات!

***

وبعد ربع قرن من ممارسة الطب أستطيع أن أضيف أحد
الأسباب الطبية لموت الإنسان ألا وهو الظلم!

عادل صادق

لم يكن طارق الحاضر الوحيد في جنازة الأختين فِداء وجُهينة بل رافقه والده السيد مصطفى أيضا.

عند بوابة المقبرة ارتفع صوت سلوى بالنداء:

- توقف يا والدي.. توقف يا والدي!

اندهش الهاشمي مما أقدمت عليه ابنته، ولم يكد يأتِ بكلمة حتى بادرته قائلة:

أتدري يا والدي! عشتُ طيلة حياتي أتمنى الموت، بل إنني اختبرت تجربة الاقتراب منه! نعم لا أحد منكم يدري بأنني أوشكت على الانتحار! أنا الأخت القويّة التي كان عليّ أن أتحمل مسؤولية تمثيل القدوة لأختيّ الصغيرتين! أن أكون لهما الدِّرع الواقي من سياطك، وأن أعالج جراحهما بعد كل ثورة غضب منك! تمنيتُ فقط أن ينتهي ذلك الجحيم، أن أغلق عينيّ ولا أفتحها مجددا، غير عابئة بزوالٍ أو مصير! كل هذا كان من صنع يديك أنت، لقد اخترتَ الجحيم! اخترت أن تُعاقبنا على أنوثة لم يكن لنا فيها يد، ولم نملك فيها قرارا أو اختيارا!

وها أنت اليوم تدفن جسدين فتيين، بنتين في مقتبل العمر، لم تنعما بالحياة ولم تخبرا أحوالها لأنهما عاشا أسيرتَيْ تسلّطك، سجينَتيْ إرادتك وقرارك!

أرسلتهما إلى القبر قبل أن تذوقا الحب، تَخبرا الأمومة! ماتتا قهرا وطلبا للراحة من جحيمك، لكنك لن تفعل ذلك بي، فقد وجدت الحياة، وجدت الحب يا والدي، فلن تدفنني كما فعلت مع أختَيّ!

الوداع

تملكت الهاشمي رعشة امتدت إلى سائر جسده، كان مصدوما واجما كتمثال! وما فتئ أن انطلق نحوها صارخا، فارتبك بعض الناس وبادر آخرون إلى الإمساك به، وإخماد غضبه.

تراجعت سلوى والحسرة تبدو على وجهها، واندفعت نحو سيارة طارق الذي لم يكن أقل دهشة من جميع الحاضرين!

احتاج طارق للحظات حتى يتنبه إلى ضرورة اللحاق بسلوى نحو السيارة، كذلك فعل السيد مصطفى، وبقي الهاشمي في مكانه واجما.

أما سعيدة فكانت حاضرة غائبة، جسدها فارغ من روحٍ حلّقت بحثا عن ابنتيها الفقيدتين! عيناها زائغتان في السماء، وشفتاها في همسٍ مُتواصل مكتوم، وجسدها المُتهالك يكاد يخرّ أرضا لولا استناده على بعض السواعد المُبادرة بمدّ يد العون إشفاقا على أمٍّ أصابتها رزيّة الموت! لم تلحق بسلوى إلى السيارة، ولم تُحاول منعها من المُضيّ قدما في اختيارها!

هي سعيدة التي لم تملك من اسمها إلا وظيفته، فقد عاشت في بُعدٍ كبير عن السعادة، استنفذت الجهد في رتق الجرح تِلوَ

الجرح إلى أن تراكمت الجراح وصارت موتا! هي اليوم ليست مستعدةً لتُقدّم ابنتها سلوى الناجية الوحيدة لأنياب الموت! لا! لن تُشارك في تلك الجريمة مرّة أخرى!

ولم تكد السيارة السوداء تبتعد قليلا، حتى توقّفت وعادت إلى الخلف ببطء، ومن خلف الزجاج امتدت يد سلوى نحو أمها سعيدة قائلة:

- تعاليْ معي يا أمي، لا حياة لك مع هذا القاتل!